سلسلة
جدران
المعرفة
2006

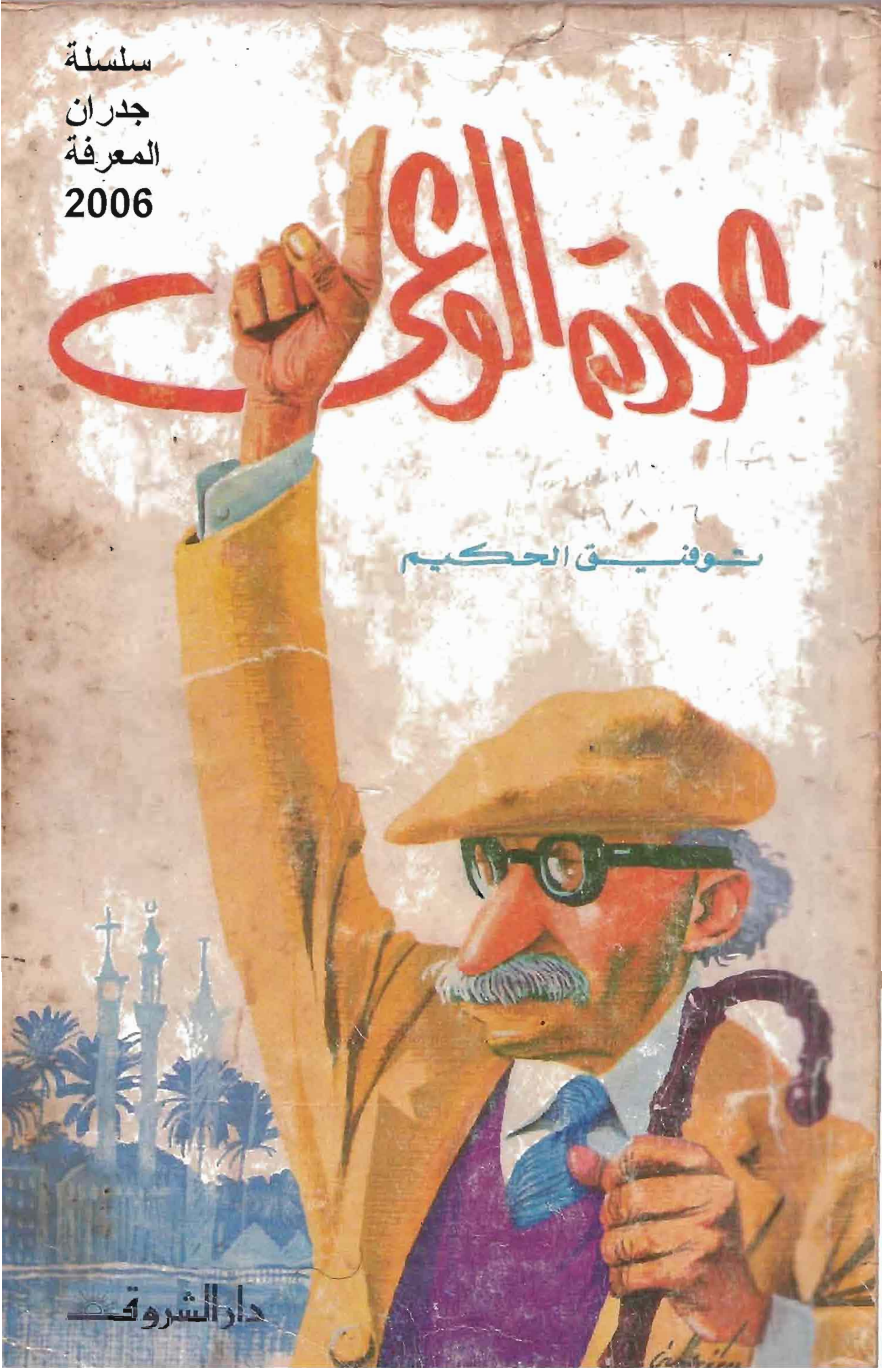

سلسلة جدران

kotob

المعرفة®

" بحثآ عن عالم أفضل " .

* يمكنكم التعرف على فهرس السلسلة الاولى فى اخر صفحة فى هذا الكتاب .
كما أننا ننصح بقراءة الكتاب بنظم full screen عن طريق الضغط على { ctrl + L }
وتقريب الصفحة zoom in
{ ctrl + m }
حتى لا تؤذى عينيك .

وقد ارفقنا فى كل كتاب فهرس للكتب bookmarks لتقليب الكتاب فى سهولة ويسر ..
انظر فى اعلى الشمال .

مع تحيات

J&m

Theknowledge_walls@yahoo.com

توفيق الحكيم

عودة الوعي

النص الأصلي والكامل

دار الشروق

كلمة

لم يكن في عزمي ولا نيتي الإذن بنشر هذه الصفحات يوم كتبتها . كان دافعي إلى كتابتها في ذلك اليوم هو انقضاء عشرين عاماً على ثورة ١٩٥٢ وتأملي هذه الفترة من تاريخ بلادي ، والجو من حولي مكفهر بالأحداث الأليمة ، والصدور منقبضة بكابوس الهزيمة ...

جعلت استرجع ما وعته ذاكرتي من صور الثورة ومن صلتي بها ، وأحاسب نفسي من خلال محاسبتي لها . ولم أطلع أحداً على هذه الصفحات . أردت أن أدسها بين أوراقي الخاصة واحتفظ بها احتفاظي بشيء يخصني وحدي ، واعتبرتها مذكرات ليست بعد للنشر ، تحدد على الورق مشاعري الشخصية تجاه تلك الحقبة من عمري . وهذا ما فعلته ... لأن مواقف أهل الرأي التي يجب أن تعلن هي التي تكون أثناء الأحداث وفي صميمها ـ إذا استطاعوا ـ وليس بعدها . أما إذا كان الأمر تدويناً لذكريات

ومراجعة لأمس ومحاسبة لنفس فإن هذا لا يمكن بالضرورة أن يكون إلا بعد زوال الأحداث . ولذلك بقيت هذه الصفحات خطية مطوية ، إلى أن شاءت ظروف في مناسبة من المناسبات أن أطلع عليها صديقاً قديماً أثق به كل الثقة . فاستأذنني في استخراج نسخة من هذه المخطوطة يحتفظ بها لنفسه . وكان أن استنسخها على آلة كاتبة . وإذا بعدد من النسخ قد تسرب . ثم تكاثر وانتقل في الخفاء من يد إلى يد . إلى أن خرج الأمر كله من يدي . ولم أحفل كثيراً بما حدث ويحدث ، لأن الأصل المكتوب بخط يدي هو في حوزتي دائماً ، وليس على ما نشر توقيعي ولا اسمي . ولكن الأمر استفحل حتى وجدت ذات يوم مجلة فرنسية محترمة قد نشرت ترجمة غير كاملة عن نسخة من تلك النسخ المتسربة . وأرادت مجلة أخرى في أوربا أن أصرح لها بالنشر فرفضت ورضخت لإرادتي . وأخيراً علمت أن إحدى الجرائد في لبنان قد نشرت عن النص الفرنسي غير الكامل ترجمة عربية بعيدة عن الأصل أسلوباً ومضموناً . ثم جاءني أكثر من ناشر يطلب نشر الأصل الكامل باسمي وأسلوبي في جريدة أخرى ثم إخراجها في كتاب . وهنا

عزمت على أن أقاضي قانونياً كل أولئك الذين نشروا هذه الصفحات المبتسرة المترجمة بدون علمي وإذني ونسبوها إليّ . ولكن بعد التروي واستشارة الأصدقاء من أهل الفكر والرأي اتضح أن المقاضاة قد تحمل معنى الإنكار لهذه الصفحات بما فيها من رأي . وهذا الإنكار ليس في نظرهم من شيمتي ، لأنهم يعرفون عني من قديم أني لم أنكر قط شيئاً كتبته ، أو حتى لم أكتبه ونسب إليّ واعتقدته ووجدته يمثل رأيي . واتفقوا على أن أصرح بالنشر ما دام النشر قد وقع بالفعل ، وأن من حق الناس أن يطالعوا ما أكتبه في السر أو في العلن ، لأن القلم والفكر في رأيهم ملك الناس جميعاً وليس ملكاً خاصاً محبوساً على صاحبه . وهذا صحيح . وهذه عقيدتي أيضاً . فحامل القلم والفكر مسئول عن تبليغ الناس بما يراه . حتى وإن كان غير مسئول عن صحة الرأي . فهو ليس بمعصوم من خطأ التقدير أو خداع النظر أو سوء الفهم أو سلامة الحكم أو حجب مصادر العلم . ولكنه مسئول دائماً عن الصدق والإخلاص في الرأي كما استطاع أن يراه ... على أني وقد أذنت أخيراً بنشر هذه الصفحات على الملأ

أحب أن يفهم الناس من ذلك أنها آرائي وشهادتي أمام ضميري . ولا أحب أن تؤخذ على أنها موقف سياسي أو حكم نهائي . على العكس ، إني أطالب فيها بالبحث المنصف والتحقيق الدقيق والكشف عن الحقيقة ، بعد فتح ملف هذه الفترة بأكملها .

إن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر هي الكشف عن وجه الحقيقة ...

عودة الوعي

هـذه السطور ليسـت تـاريخاً
إنمـا هـي مشاهـد ومشاعـر
استرجعـت مـن الـذاكــرة
ولا تستند إلى أي مرجع آخـر

للفترة ما بين هـذين التاريخين
من يوم الأربعاء ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢
إلى يـوم الأحـد ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٢

عودة الوعي

كان يوم اربعاء فيما اذكر . ذلك ان اليوم التالي ، وهو الخميس ، كان يوم سفري الاسبوعي الى الاسكندرية . لقد كنت يومئذ مديرا لدار الكتب المصرية . ولم تكن اجازتي السنوية قد حان موعدها فسبقتني اسرتي الى المصيف ، على ان امضي معها عطلة نهاية الاسبوع . وصرت وحدي في مسكني . ولم اكن في حاجة الى من يخدمني ، فطعامي اتناوله في الخارج . واسهر مع اصدقاء وزملاء من الكتاب والصحفيين ، ولا اعود الى شقتي الا آخر الليل لأنام . وكانت القاهرة في هذه الايام الاخيرة من شهر يوليو تكاد تكون مقفرة . فالملك فاروق قد انتقل الى مصيفه بقصر المنتزه ، وانتقلت معه الحكومة وكبار موظفيها الى مقرها المعتاد في بولكلي . كل شيء يسير سيره العادي . وعدت من سهرتي وآويت الى فراشي .

ذلك الصباح . . .

وفي الصباح الباكر نهضت وأدرت جهاز الراديو كما افعل كل صباح . ولكني سمعت شيئا غريبا لم يسبق لي سماع مثله . انه بيان من الجيش يعلن قيامه لاصلاح الفاسد من أمر البلاد ، وانه تقدم بمطالب الى القصر الملكي لاقصاء الحاشية الفاسدة . كلمات بهذا المعنى تلقيتها طبعا بابتهاج ، وان كنت لم اقدر لها من الابعاد اكثر مما تحتمل . فما من احد في البلاد ، في ذلك الوقت ، لم يشعر بالسخط والاشمئزاز لسلوك الملك الشخصي وتصرفه العام . فقد كان لا يخجل من الظهور في كل مكان بين حاشيته من القوادين المبتذلين ولم يقف بهم عند حدود حياته الخاصة اللاهية العابثة ، بل تركهم يتدخلون ويؤثرون في شئون الدولة . ولقد حاول بعض النصحاء ان ينبهوه الى خطورة ذلك وسوء عاقبته ، فلم يلتفت الى نصح . بل لقد رفع الى اعتابه ، رجاء بتطهير قصره من مثل هذه الحاشية ، في عريضة رسمية موقع عليها من بعض رجال السياسة ، فغضب منهم ولم يأبه لهم . واستمر كل شيء في طريقه المعهود . لذلك لم اشعر عند سماعي بيان الجيش بأن شيئا خطيرا سوف يحدث . انه مجرد احتجاج ككل احتجاج .

وارتديت ملابسي وخرجت في صباح ذلك اليوم (الاربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، واتجهت الى ميدان سليمان باشا لاتناول فطوري المعتاد ، واذا بي اجد في ذلك الميدان دبابتين من دبابات

الجيش المصري . اذن المسألة قد تكون اكبر مما توقعت . فنحن قد اعتدنا ان نرى في مثل هذه المواقف دبابات جيش الاحتلال الانجليزي . اما دبابات جيشنا المصري ، وخاصة بعد بيان يتحدى الملك ، فمعناه شيء لم يكن يخطر لنا على بال . ودخلت محل «جروبي» ، ووجدت هناك بعض المعارف يتحدثون في ذلك الامر ، وقد احتدم الحديث وعلت الاصوات واشترك في النقاش من نعرف ومن لا نعرف ، فأدركت ان احداثا خطيرة في الطريق الينا . وفي اليوم التالي ، الخميس ، غادرت مكتبي بدار الكتب لألحق بأوتوبيس الصحراء الذي يتحرك في الرابعة بعد الظهر الى الاسكندرية . وذهبت الى بيتي توا ولم اخرج منه الا في صباح الجمعة فرأيت سيارات الجيش تذهب وتجيء طول طريق الكورنيش والناس يصفقون لها بحماس . وكنت انا الآخر في شدة الحماس . ما من احد في مصر لم يتحمس لهذا الجيش ، الذي استطاع وحده ان يقف ضد ذلك الملك ذلك الشخص المكروه من الجميع ، باخلاقه القذرة وجسمه المترهل كأنه الخنزير .

وكأن القدر اراد له النهاية فأعماه عن سلوك الطريق الذي ينقذه . لقد كانت البوادر تنذر بالعاصفة ، فواجهها هو بتأليف وزارة جديدة واهية هزيلة ، وجعل وزير الدفاع فيها زوج اخته «فوزية» الشاب الرقيق اسماعيل شيرين . وحتى هذا الشاب فهم للتو أن الظروف اخطر والمسئولية أكبر من أن يحملها مثله ومثل

هذه الوزارة . فما ان تقدم لحلف اليمين امام الملك حتى جثا على ركبتيه ، واستحلفه بحق النسب والقرابة ، ان يستمع منه لقولة الصدق وهي ان يأتي بالرجل الوحيد الذي يستطيع ان يواجه الموقف وينقذ العرش : انه زعيم الاغلبية «مصطفى النحاس باشا» ، فهو لم يزل يحتفظ في البلاد بشعبية واسعة ، وظهوره في تلك اللحظات سيجذب اليه الجماهير فتصغي اليه والى الحل الذي يراه ، وهو على كل حال رجل معروف بانه لا يتصرف الا في حدود الدستور .

وتردد الملك

ولكن الملك تردد . وربما كبر عليه ان يأتي بعدوه التقليدي ليخرجه من مأزقه . وأمام الحاح نسيبه الشاب احال الموضوع الى رئيس ديوانه ليدلي برأيه . و كان هو «الدكتور حافظ عفيفي» احد اعداء النحاس وحزبه ، فكان رأيه بالطبع معروفا . وضاعت الفرصة على الملك . وسارت الامور بسرعة مذهلة . وفي طريق عودتي الى القاهرة بالاتوبيس الصحراوي ، بعد ظهر السبت ٢٦ يولية ١٩٥٢ ، وقفنا في استراحة «الرست هاوس» وطلبت فنجانا من القهوة ، واذا صوت مذيع الراديو بالمكان ، يعلن خبر مغادرة الملك للبلاد بعد نزوله عن العرش . وكان شعور البلاد بالفرحة شعورا حقيقيا لا جدال فيه . . .

السادة الجدد

وتطلعت البلاد الى السادة الجدد . من هم ؟ لم يكن احد منا يعرف عنهم شيئا . اللهم الا رئيسهم باسم الحركة في البيانات التي تصدر في الصحف وتذاع في محطات الاذاعة . انه لواء في الجيش هو «محمد نجيب» ، كان قد تردد اسمه في الشهور الاخيرة ، وقيل ان رجال الجيش ، وخاصة الضباط الشباب يرشحونه لرياسة ناديهم ، والملك فاروق يعارض . ثم ابعده ورشح غيره من رجاله المقربين . ولكنه ظل محبوبا من الضباط الشبان ، الى ان ظهر على رأسهم في هذه الحركة التي ادت الى طرد الملك .

والآن وقد استتب الامر واصبح كل شيء في يد القائمين بالحركة ، ماذا هم فاعلون ؟ . . . كان من رأي «اللواء محمد نجيب» ، كما سمعت ، ان الجيش لا يحكم ولا ينبغي له ، وان عليه ان يترك حكم البلاد لاهلها بالطريقة الدستورية ، وان يعود الجيش الى ثكناته ويراقب سير الامور عن كثب ، وقيل انه اتصل بزعيم حزب الاغلبية «مصطفى النحاس» في هذا الشأن ، وان محادثات تليفونية بينهما قد سمعت . ووقعت جفوة بين اللواء وزملائه الضباط الشبان .

الضباط وبجماليون

وقال لي يومئذ صديق من الصحفيين اللامعين المتصلين بهؤلاء الضباط اتصالا وثيقا : انهم يقولون ان الامر يشبه مسرحيتك

عن «بجماليون» . . . كانوا يقصدون بذلك انهم هم الذين صنعوا من محمد نجيب التمثال الذي يقدم للناس على انه رأس الحركة. والواقع انهم هم الذين فكروا في القيام بحركتهم وخططوا لها وكتبوا لها المنشورات باسم «الضباط الاحرار» وحددوا موعد التنفيذ . ولكنهم استصغروا انفسهم على مواجهة الناس وهم صغار السن والرتبة العسكرية . وخشوا ان لا يأخذ الناس مأخذ الجد حركة يقوم بها جماعة من شباب الجيش المجهولين المغمورين. كان لا بد لهم من وجه كهل ، برتبة لواء على الاقل ، يضعونه في المقدمة ويتقدمون خلفه . فاختاروا اللواء محمد نجيب ، واقاموه تمثالا فوق قاعدة الحركة . ولكنه الان قد استقر في اعين الناس ، ونسي انه مجرد تمثال ، واخذ يتصرف برأيه في مستقبل البلد السياسي ، فتذكروا تمثال «بجماليون» . ولكن هل كان احدهم قد قرأ حقا مسرحيتي ، او ان الذي يعرفونه او سمعوا عنه هو مجرد الاسم والعنوان ؟ مهما يكن من أمر ، فان بجماليون في مسرحيتي قد حطم بعد ذلك تمثاله ، وهذا بالضبط ما فعلوه هم بتمثالهم . . .

ولكن السؤال هو : هل كان في تدبيرهم من أول الامر التخلص من محمد نجيب بعد الانتهاء من مهمته ؟ . . . . . او ان الحوادث اضطرتهم الى ذلك ؟ . . لقد قيل ان بعض لواءات الجيش والسياسيين قد نصحوا محمد نجيب بان يبادر بالتخلص من هؤلاء الشبان المتهوسين ، ولكنهم هم كانوا اسبق منه ،

فتغدوا به قبل ان يتعشى بهم . . . وقيل ايضا ولست ادري أحقيقة هي أم اشاعة ، ان تأييد السودان لمحمد نجيب وزعامته كان عظيما ، فأمه سودانية ، وان السودانيين كانوا على استعداد للوحدة مع مصر بزعامة محمد نجيب ، واذا تم ذلك فمعناه الاستقرار النهائي لحكم نجيب ، والقضاء على فكرة اقصائه والتخلص منه . ولذلك قيل ايضا — والعهدة على الراوي او الرواة — ان الضباط الاحرار اسرعوا واوفدوا من ذهب الى السودان للعمل على عرقلة هذه الوحدة .

الخلافات الحزبية

كل هذه اشاعات او حقائق لا بد ان يتناولها التاويخ بالفحص الدقيق في يوم من الايام . . .

هناك سؤال آخر : هل كان في تخطيط هؤلاء الضباط الاحرار ان يحكموا البلاد بانفسهم او ان الظروف في البلد ذلك الوقت هي التي دفعتهم الى ذلك دفعا ؟ . . . اني بالطبع لا استطيع ان اعرف دخيلة نواياهم ، ولكني اعرف بالمشاهدة المباشرة ، كما يعرف الكثيرون في ذلك الوقت ، ما كانت عليه حالة البلاد من خلافات حزبية واخلاق انتهازية . فمن الخلافات الحزبية ما لمست بنفسي مثلا من امثلته ، وقد قامت الثورة . وكانت حوادثها المتلاحقة تدعوني الى تتبعها ، فكنت اتردد على جريدة «اخبار اليوم» كل ليلة لاستطلع ما يجري . وفي ذات ليلة وجدت هناك

صديقي الصحفي القديم المرحوم «توفيق دياب» صاحب جريدة «الجهاد» الوفدية . وما كدنا نجلس حتى دخل علينا احد اقطاب حزب الاحرار الدستوريين المعارض للوفد وهو المرحوم «احمد عبد الغفار باشا» . واذا الاثنان يتلاقيان بالقبلات والاحضان ويتبادلان ارق العبارات بالود والترحاب . ثم اخذا يتحدثان في الاوضاع الجديدة ومصير الدستور وضرورة وقوف الاحزاب كلها صفا واحدا ، ووضع حد للخلافات ، ومد كل سياسي يده الى الاخر لتتحد الكلمة ، حفاظا على دستور البلاد ، فقال احمد عبد الغفار : « ومن يضمن لنا حسن نيتكم يا حزب الوفد ؟» فرد عليه توفيق دياب : «اذا كان هناك غدر فانتم اصحاب الغدر دائما يا حزب الأقلية» . وكلمة من ذاك وكلمة من هذا فلم اشعر الا بالاصوات وقد ارتفعت بالسباب من الطرفين . وصوت احمد عبد الغفار الجهوري المجلجل يصيح : « من يضع يده في ايديكم يا وفديين يا حزب الرعاع يا كلاب» ، فصرخ توفيق دياب وقال وهو يجأر : «اخرس يا وغد انت وحزبك الحقير يا صنائع الانجليز . . . .» ولم يقف الامر عند حد التراشق بالسب والشتم بل تعداه الى الضرب واللكم .

وتضارب السياسيان

فقد رفع عبد الغفار عصاه لينهال بها على خصمه ، فاندفع خصمه دياب بكل جسمه الممتلىء ليكيل له لكمة . . . ولم اجد

بدا من التدخل ، لأحول بينهما . فامسكت بسترة توفيق دياب لاجذبه الى الخلف ، فانزلقت قدمه ووقع على الارض ووقعت معه . ثم نهض وهو يحاول التخلص من قبضتي التي ماتت على سترته صائحا : «سيبني سيبني يا اخي . . . لازم اعلمه الادب واهشم له دماغه الوسخ » ، والاخر لا يزال واقفا بعصاه المرفوعة في الهواء وهو يرغي ويزبد بسبه وسب الوفديين جميعا . . . ولم اجد دنواً من ان اسحب صاحبي الى الخارج . ونجحت في اخراجه واوصيته ان يذهب الى بيته فورا وينام في فراشه . فانا اعرف انه خارج حديثا من أزمة قلبية . وخشيت عواقب هذه المحادثة على صحته . وعدت الى احمد عبد الغفار محاولا ان اعيد الصفاء الى النفوس ولكن هيهات . . . . لقد ايقنت تلك الليلة ان لا شيء . يمكن ان يقضي على داء الحزبية والتعصب الحزبي في هذا البلد...

ثورة ضد الدستور

لكن ماذا حدث للدستور القائم في مصر وقتئذ ؟ قيل لي ان حركة الضباط بعد ان نجحت في طرد الملك فاروق ، وحصلت منه على وثيقة النزول عن العرش ، تلك الوثيقة التي ذهب وقدمها اليه في قصره بالمنتزه وكيل مجلس الدولة «سليمان حافظ» ، كان على الضباط الاحرار ان يسيروا في اجراءات الوصاية على العرش وهي اجراءات منصوص عليها في الدستور . وقيل ايضا ان زعيم حزب الاغلبية «النحاس باشا» اتفق معهم على كل

هذه الاجراءات الدستورية بما فيها دعوة مجلس النواب المنحل نعرض عليه اسماء الاوصياء ، طبقا لاحكام الدستور ثم تتخذ الاجراءات لاجراء انتخابات جديدة . . . ولكن «سليمان حافظ» وهو ايضا من أعداء الوفد القى في نفوسهم الخوف في ذلك . وقال لهم ان الانتخابات الحرة ستسفر حتما عن برلمان وفدي . ومن ادراكم ان هذا البرلمان سيؤيدكم . ثم اشار عليهم باهمال هذا الدستور ، وافتى لهم بان من حقهم اصدار القوانين دون برلمان ، لانهم قاموا بثورة ، والثورة معناها الغاء ما قبلها من اوضاع . . . . . وهكذا اطلق على حركة ٢٣ يولية اسم «الثورة» بعد ان كان اسمها «الحركة» ولحبنا لها سميت «الحركة المباركة» . وقام بعض اساتذة الجامعة يؤكدون وصف «الثورة» ويؤيدون حقها المطلق في اصدار القوانين . . .

واصبحت الحركة ثورة

ولكن بعض فقهاء القانون الدستوري ، قاموا من جهة اخرى ينفون عن الحركة وصف الثورة ، ويدللون على ان الوصف المنطبق على هذه الحركة هو «الانقلاب العسكري» ذلك ان الثورة يقوم بها الشعب ويقودها مدنيون . كما حدث في الثورة الفرنسية التي قام بها الشعب بقيادة مدنيين ، وكما حدث في الثورة الروسية التي قام بها الشعب بقيادة «لينين» وكما حدث في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ التي قام بها الشعب بقيادة مدنيين .

اما الحركة التي تقوم بها جماعة مسلحة من رجال الجيش فهي «انقلاب لنظام الحكم» ولكن الضباط الاحرار لم يأخذوا طبعا بالرأي الثاني ، وابعدوا اصحابه ، ورحبوا بالرأي الأول وقربوا القائلين به . واصبحت الحركة ثورة واصبح لها مجلس ثورة يصدر القوانين في حجرات مغلقة دون معارضة وبغير مناقشة علنية .

أين كنا ؟ . . .

ولكن . . . . اين كنا نحن ؟ أين كان المفكرون في هذا البلد ؟ وأين كنت انا المحب لحرية الرأي ؟ الواقع اننا — ولأقصر الكلام على نفسي ومشاعري — لم أشعر قط بضيق . على العكس كنت مستبشرا بقدوم هؤلاء الشبان ، مبهورا بما قاموا به من طرد ملك ، ما كان احد يخطر بباله أن يطرد بهذه السهولة . اما الحياة الدستورية التي ضاعت ، فلم نلتفت الى خطورة ضياعها في ذلك الوقت . لأننا كنا خارجين من مرحلة فقد فيها الدستور قدسيته ، وافسدت فيه الديمقراطية افسادا جعل منها مطية للانتهازيين ووسيلة للمستوزرين ، مما كنت ذكرته في كتابي «شجرة الحكم» . واذا كان الدستور قد ضاع بنصيحة ذوي الاحقاد والاغراض فهذه لم تكن المرة الاولى . فقد سبق للدستور ان انتهك بنصيحة كهذه يوم اعتلى فاروق العرش ، وباشر وهو شاب صغير بريء سلطاته الدستورية . لم يخطر في باله ان دستور البلاد يمكن ان ينتهك . ولكن بعض مستشاريه والناصحين له

المقربين إليه ، من رجال القصر من أمثال « علي ماهر » و« أحمد حسنين» ارادوا ان يحولوه من ملك دستوري الى حاكم مطلق ، ليحكموا هم من خلفه ، فافهموه انه هو فوق الدستور ، وان عليه ان ينتهز اول فرصة لافهام الناس انه هو الحاكم القوي ، واختاروا له هذه الفرصة يوم جاءت الانتخابات بالنحاس زعيما للاغلبية ، وتقدم بكشف تشكيل الوزارة ، فاشاروا على الملك ان يرفض بعض الاسماء ويبدل ويعدل في الكشف المقدم وكانت هذه المخالفة الدستورية فاتحة عهد تحطمت فيه كل حياة ديموقراطية صحيحة .

مبادىء بلا اشخاص

لذلك خفّت علينا وطأة دستورنا الضائع . فالمبادىء ليست بذات قيمة في نظري بغير الاشخاص الذين يطبقونها باخلاص ، ويؤمنون بها ويحرصون عليها . ولقد كانت عندنا مبادىء ودساتير في ايدي اشخاص يتلاعبون بها لمنافعهم واغراضهم ، وما كنا نحلم به وننتظره دائما هو ظهور الاشخاص المخلصين . وهؤلاء الضباط الشبان بدوا لنا انهم جاءوا مخلصين لاصلاح البلد . فقد اعلنوا في شجاعة ما كنا ننادي به ولا نجد الاذن الصاغية . بادروا بالغاء الالقاب . ولطالما كتبنا ونشرنا نسخر منها . وفي كتابي «تحت شمس الفكر» مقال بعنوان « كادر المقامات» ، اسخر فيه من القاب «صاحب الرفعة» و «صاحب الدولة» و

«صاحب المعالي» و «صاحب السعادة» و «صاحب العزة» ، وغير ذلك مما يثير الابتسام عندما نتذكر رجلا مثل «تشرشل» الذي يومئذ كان يهز العالم ولا يحمل الا لقب «مستر» ، الذي يحمله سائق سيارته . هذا ما جاء في ذلك الكتاب ، كما جاء فيه ايضا ضرورة الغاء «الطرابيش» ثم تحديد الملكية . وقد طالبنا به ايضا ، فقد تقدم نائب في البرلمان السابق بهذا المطلب فلم يلتفت اليه بالطبع احد . فلما علمت بخبر العزم الجاد على تحديد الملكية الزراعية تلقيت الخبر بحماس .

السنهوري ...

وكان علمي بهذا الخبر في صباح احد ايام الصيف . وكنت جالسا في مقهى صغير على الكورنيش بسيدي بشر . فاقبل علينا الدكتور عبد الرازق السنهوري ، وكأنه جاء يبحث عني . كانت صداقتي قديمة به ، منذ عام ١٩٣٥ . كنت مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، وكان هو استاذا بكلية الحقوق . وكانت تجمع بيننا الافكار المثالية والنزعات الاصلاحية ، وكنا نسكن منطقة الجيزة ، ونسير على اقدامنا ساعة العصر على كوبري عباس نتحدث طويلا وفي يد كل منا قرطاس من الترمس ، ونحلم بشتى المشروعات . وفي ذات يوم جاءني يقول انه فكر في مشروع نافع لتكوين الشباب وغرس روح البطولة والمثل العليا في نفوسهم ، وان خير وسيلة لذلك تأليف جماعة من طلبة الجامعة ، ممن

يستطيع الاتصال بهم ، باعتباره استاذا في الكلية ، تكون مهمتهم نشر هذه المبادىء . وطلب مني معاونته في هذا المشروع بوضع البرامج اللازمة . وجعلنا نستعرض ابطال تاريخنا الذين يمثلون المبادىء العظيمة التي نريد غرسها فيهم مثل «عمر بن الخطاب» «طارق بن زياد» و «رمسيس الثاني» ونحو ذلك . . .

ومضت ايام وبينما انا جالس يوما في مكتب وكيل الوزارة . اذا بي اجد حركة غير عادية . الوزير يطلبه بالتليفون من مجلس الوزراء المنعقد ، وكانت الوزارة يومئذ ضد حزب الوفد والوفديين . ووكيل الوزارة يجري هنا وهناك يحمل ملفات فسألته عن الخبر فقال : «مجلس الوزراء منعقد لفصل الدكتور السنهوري من الجامعة» فكدت اصعق . لماذا ؟ ماذا فعل ؟ فقال : لأن الدكتور السنهوري وهو استاذ بالجامعة الف جمعية سياسية من طلبة الجامعة لنشر الدعوة للوفد بإيعاز من صديقه عضو الوفد «النقراشي باشا» فلم أصدق ما أسمع . وصحت به : «ما هذا الكلام ؟ هذا محض افتراء . هذه جمعية اخلاقية للحض على المثل العليا والتشبيه بعمر بن الخطاب وطارق بن زياد ورمسيس الثاني» . فضحك ساخرا وقال : «اسكت . . . اسكت . . . عمر بن الخطاب ايه ؟ ورمسيس الثاني ايه ؟ انت لا تعرف شيئا . تقارير الامن العام بوزارة الداخلية والبوليس السياسي في هذه الاوراق والملفات تثبت كل شيء» فاقسمت له بشرفي . . . . ان السنهوري مظلوم ، لاني انا وهو مشتركان في هذا المشروع الاخلاقي الجليل . واذا كان لا بد من فصل السنهوري لهذا السبب فافصلوني معه .

فاكد لي ان الموضوع سياسي والجمعية لها اغراض سياسية حزبية وعضو حزب الوفد النقراشي ضالع فيها . وان الموضوع لم يكشف لي على هذا الوجه ، واني لا اعرف منه ما اظهروه لي من واجهة بريئة وما هو الا عمل حزبي بحت ، فعجبت عجبا شديدا . ولم تلبث الوزارة التي فصلت السنهوري ان سقطت وجاءت وزارة وفدية ، جاء فيها النقراشي باشا وزيرا فمد يده بالفعل إلى السنهوري ، واعاده ومهد له طريق العمادة للكلية ثم وكالة وزارة المعارف . ولكن ذلك كله لم يؤثر في صداقتي الشخصية للسنهوري .

بداية تحديد الملكية . . .

فلما جاء ذلك الصباح يبحث عني في مقهى سيدي بشر ، وكان يومئذ رئيسا لمجلس الدولة وموضع الثقة والمشورة لدى ضباط الثورة ، سألته عن الخبر ؟ فقال «اتريدنا ان نجلس ونتكلم هكذا في موضوع هام على قارعة الطريق ، وفي مثل هذا المقهى الصغير ؟ قم بنا الى كازينو مغلق محترم . . . . » وقادني من يدي ودخلنا بالفعل مكاناً لائقاً وعندئذ قال لي : «اسمع . . . رجال الثورة يريدون تحديد الملكية الزراعية ، وامامنا الان اقتراحان : اقتراح بجعل الحد الاقصى للملكية خمسمائة فدان ، واقتراح آخر بجعلها مائتين» فلم اتركه يتم كلامه ، وصحت به : «مائتين.. مائتين . اجعلوها مائتين» . . كنا متحمسين للتطرف . لطول

ما قاسينا في مصر من التردد والرفض والمماطلة . واني اذكر دائما هذه اللحظة . وكثيرا ما كررتها لبعض معارفنا القدامى من اصحاب مئات الأطيان ، كلما لعنــوا أمامي هذه الثورة التي استولت على اطيانهم كنت أؤكد لهم ان الثورة مظلومة ، واننا كنا متحمسين لذلك ، فرحين لاستجابتها الى مشاعر ومطالب كانت تخالجنا من قبل . . .

حول الغاء الطربوش

نعم كنا نرى الكثير من مطالبنا وتمنياتنا يتحقق بسرعة ويسر . في حين ان اقل واتفه ما كنا ندعو اليه في الماضي كان يتعثر في العراقيل ويتبخر في الجدل . فابسط الاشياء وهو خلع الطربوش رمز التبعية العثمانية ، الذي لا يوفر دفئا في شتاء ولا يقي من الشمس في الصيف ، لم ينجح احد في فرض خلعه او تغييره . وقد اراد الصحفي القديم «محمود عزمي» ان يدعو الى ذلك في العشرينات ، ولبس القبعة فلم يتبعه احد . واضطر الى خلعها والعودة الى الطربوش ، وتطلعت انظار المجددين الى زعيم ثورة ١٩١٩ «سعد زغلول» ليقوم بالخطوة الاولى في هذا السبيل ، ولو انه فعل لتبعته الامة أو أكثرها ، خصوصا وزعيم الثورة التركية « كمال أتاتورك » كان قد اصدر وقتئذ أمره بخلع الطربوش في تركيا . فكيف تزول من البلاد التي جاءتنا بها ونظل نحن متمسكين ؟ ولكن «سعد زغلول» لم يشأ القيام بحركات او اصلاحات ، مما يمكن ان تثير المناقشات والمجادلات التي

تؤدي الى انقسام الامة في وقت تحتاج فيه الى الوحدة والتكتل لطرد الاحتلال البريطاني . . . . وجاءت الثلاثينات فتجددت الدعوة ، وكنت انا طرفا فيها . وكثر الجدال على صفحات الجرائد بيني وبين رئيس تحرير جريدة المقطم المحافظة (خليل ثابت) . وانتهى الامر بان خلعت انا وحدي الطربوش ولبست «البيريه» لقربه من الطاقية . وثبتت عليه حتى اليوم ورأيته يعلو الكثير من الرؤوس . . .

حل الأحزاب ومحاكمة زعمائها

هذا التنفيذ السريع ، عقب قيام الثورة ، لقرارات كانت تستغرق منا لتنفيذها الاعوام والاجيال ، لقد بهرنا وجعلنا نسير خلف هذه الثورة بغير وعي . . . وشعرت الثورة انها قد احرزت نجاحا جعلها موضع الثقة ومناط الامل ، فارادت ان يكون لها سلطان راسخ . ولكن الاحزاب لم تزل قائمة ، وقد تفيق يوما وتتحد وتطالب بعودة الحياة الدستورية فما هو مكان رجال الجيش ممن قاموا بالحركة ؟ وهنا بادرت الثورة بحل الأحزاب جميعها . ولكن هذا لا يكفي . فما زال في البلد رجال سياسة ورجال عقول واسماء كبيرة في كل مجال ، لها الاعتبار او بعضه في النفوس والاذهان . اسماء قد يتضاءل الى جانبها هذه الاسماء المغمورة لضباط شبان لا يوحي ذكرها بعد برصيد من تجربة او علم او ثقافة . . . وهنا ايضا اقدمت الثورة على ضربة

بارعة ، تكاد تشبه ضربة محمد علي للمماليك في القلعة . تلك هي انشاء «محكمة الثورة» ، حيث جاءت بأغلب رجال السياسة من اصحاب الاقدار الكبيرة والاسماء اللامعة ، فجردتهم من هيبتهم تجريدا ، وجعلتهم يقفون امامها وامام الناس عرايا مستضعفين خائفين وطامعين ، كل منهم يطعن في زميله لينجو بنفسه ، او لينال الحظوة عند الحاكمين ، وضباط الثورة يشيرون اليهم ويقولون للناس : «هؤلاء هم الذين كانوا يحكمونكم وكنتم تحترمونهم . . . »

ولكن عددا من هؤلاء وقف امام المحكمة وقال كلمة صدق وشجاعة ، دون ان يسف في القول او يطعن في زميل . على سبيل المثال — فيما سمعنا — ما روي عن السياسي الاديب الدكتور «محمد حسين هيكل» . سألته المحكمة : لماذا لم يقف في وجه طغيان فاروق وهو زعيم حزب ؟ ، فرد على ضباط المحكمة بهدوء . «لان فاروق كان يخيفنا بكم انتم يا رجال جيشه ! الم يكن فاروق هو القائد الاعلى للجيش وانتم رجاله ؟ » . . . وهذا صحيح . ماذا يفعل حزب من المدنيين امام الجيش ؟ كان في الواقع سؤالا لا محل له . ولكن مثل هذه المحكمة ما كانت بالطبع تتوقع من مثل هؤلاء الساسة في مثل هذا الموقف المهين ردودا محرجة . . .

اما من كانوا خارج هذه المحكمة من رجالات مصر المرموقين فكان رجال الثورة يطلبونهم واحدا واحدا على انفراد

ليستمعوا منهم ، فكان شأنهم شأن غيرهم . وهو تسابق الواحد منهم في طلب الحظوة ، والاعلاء من قدر نفسه ورأيه ونصحه والحط من قدر غيره والتسفيه لرأي سواه . . . فكانت لعبة الحكام الجدد المفضلة ان يضربوا هذا بذاك ، ويتلذذوا بمنظر هؤلاء الكبراء الفضلاء وهم يترامون على الاقدام خوفا وطمعا في حلبة التزلف والملق . . .

وحركة التطهير

ثم اردفوا ذلك بالخبطة الكبرى التي عمت آثارها البلد كله وقلبت الموازين وقوضت النظام القديم في ادق تفصيلاته . وهي «حركة التطهير» ، واغراء كل موظف ان يشكو رئيسه ، وكل صغير ان يتهجم على كبير . وكل زميل ان يشي بزميل . فانقلبت المصالح والادارات والوزارات والجامعات والمستشفيات . وكل جانب من جوانب النشاط في مصر الى ميدان مطاعن بالحق والباطل . وفي اغلب الاحيان بالباطل . لان الطاعن كان في كثير من الاحوال يطمع في مركز المطعون . وفي احيان اخرى كان الشاكي مجرد مشاغب الفطرة . اعطيت له فرصة الشغب ولم يسلم رئيس في ادارة او مدير في مصلحة من شكوى مرؤوس له . ولا استاذ في جامعة من مطاعن زميل .

وشكوى ضدي أنا

وما من أحد سلم من الخدش في هذا المعمعان . حتى أنا مدير دار الكتب لم أشعر إلا وشكوى قدمت ضدي من موظف محب للشغب . ماذا يمكن أن يقول وعملنا في هذه الدار ليس فيه مايسمح بالمآخذ ، ولكنه وجد شيئاً . ولا بد أن توجد في هذه الهوجة شكوى من أي شيء في أي مكان . ولم أكن اتصور أن يكون العمل النافع موضع شكوى . ماذا فعلت ؟ الحكاية أنه في اليوم الأول لتسلمي وظيفتي في دار الكتب وجدت في حجرتي ما يشبه الكنبة المغطاة بكساء من الجوخ الأخضر . أردت الجلوس عليها فمنعني السكرتير وأزاح الغطاء فإذا هو مصحف كبير . حجمه متر في مترين . وغلافه من الفضة الخالصة قيل أنه هدية الدار من مهراجا هندي . فعجبت لوضعه هكذا في حجرة المدير . ورأيت الواجب أن تعرض هذه التحفة الثمينة ليشاهدها الجمهور . ثم قمت بجولة تفتيش في الدار فوجدت صناديق خشبية كبيرة ملقاة باهمال تكاد تسكنها الصراصير . فأمرت بفتحها فإذا بها نماذج من صور « ميناتور » جميلة للفن الفارسي في القرن السابع عشر ، تصور حكايات الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ونحو ذلك . فعجبت أيضاً وقلت : الجماهير أولى بها من الصراصير . ثم زارني بعد ذلك العلامة النمسوي « جروهمان » وهو المتخصص في العالم كله بكتاباته وبحوثه في أوراق البردى الاسلامي واستطعت أن أحصل منه على نماذج طريفة من مخطوطات البردى تكشف عن طريقة المعاملات الخاصة

والعامة والتجارية في مصر الإسلامية منذ أيام عمرو بن العاص .

وفكرت وقتئذ في أن أعرض كل هذه الأشياء الثمينة في شبه متحف أو معرض يشاهده الجمهور من المترددين على دار الكتب . وتصادف أن زارت القاهرة وقتئذ سيدة فرنسية هي بنت اخت عالم الآثار المصرية ومدير المتحف المصري مسيو « دريوتون » . وكان صديقاً لي فرجوته أن يأذن بدعوة بنت أخته . وكانت تعمل في متحف اللوفر بباريس للمعاونة في تنظيم ذلك المعرض . فوضعت المصحف الفضي الضخم وسط المكان مفتوح الصفحات . وحوله سياج من القطيفة الحمراء مثبت على أعمدة رفيعة من النحاس الأصفر ، ثم أشارت بصنع خزائن خشبية بواجهات زجاجية لعرض صور الفن الفارسي ، ونماذج مخطوطات البردى الاسلامية ونجح المعرض وكان يأتي لمشاهدته كل يوم أفواج من الزوار وخاصة من السائحين الأجانب . وما هي إذن الجريمة في ذلك ؟ قالت الشكوى أني صرفت من مال الدولة مكافأة لسيدة أجنبية لأنها من قريبات أحد أصدقائي الأجانب . والحقيقة أن هذه السيدة الزائرة لم يصرف لها أي مبلغ . وقد قامت بهذه الخدمة تطوعاً منها عن طيب خاطر . وحفظت الشكوى بالطبع . ولكنها مثل من الأمثلة التي دلتني على أن فتح هذا الباب ضرورة أكثر من نفعه . وقد أدى بالفعل إلى اتهامات ظالمة كثيرة وإلى تشويهات لسمعة بعض أفاضل الناس . وإلى استبعاد نفر من خيرة الأساتذة والعلماء . ولكن الأخطر من كل ذلك هو اشاعة الفوضى في النظام الإداري

نفسه . وخوف الرئيس من مرؤوسيه فزالت هيبته وسلطته فترك الحبل على الغارب ، وإذا كانت الثورة قد أرادت بذلك أن لا يكون لأي كبير في البلد سلطة غير سلطتها . وأن تضرب الكبير بالصغير . فان هذه الخطة قد أضرت بالثورة نفسها . فعندما استتب لها الأمر ، وشرعت في حكم البلاد حكماً مطلقاً ، وجدت أمامها رؤساء ومديرين في كل المصالح والأعمال والقطاعات فقدوا شجاعة المسئولية .

ومضت عمليات التطهير دون مبالاة وبغير حساب حتى شملت بعض كبار الموظفين ، الذين اختيروا بعدها بقليل ، وزراء في ذات الحكومة التي سبق أن أحالتهم للتطهير ، وعلى سبيل المثال المهندس عبد الملك سعد وزير المواصلات السابق ، والدكتور عبد الرازق صدقي وزير الزراعة الأسبق .

حماستي للحركة المباركة

لكن كل ذلك لم يكن قد بلغ في نظرنا مبلغ الخطورة التي تستوجب النقد . والثورات تتحمل كثيراً من الأخطاء . ونتحملها نحن عنها . بل قلما نحفل بها أو نعتبرها أخطاء . ولكن عندما تنتهي الثورات إلى كوارث جسيمة حاسمة تهز مصير الأمة ، فان هذه الأخطاء تصبح مكشوفة للنظر مطلوبة للتحقيق . شأن الشجرة الوارفة التي يسكن في جذعها السوس . لا أحد يلتفت إلى سوسها ما دامت قائمة مثمرة أما إذا تهاوت أو اصفرت أوراقها ،

فان الناس يبحثون في علتها والانظار تهتم بما عاش فيها من سوس .

لم نكن نلتفت في ذلك الوقت إلى عواقب ، لأنه لم تكن قد قد ظهرت بعد عواقب . كنا في صميم ثورة تصدر كل يوم قرارات سريعة نافعة للشعب ، فيما تنم عليه من نية طيبة في الاصلاح . واذكر تماماً الآن كل مشاعري نحوها . لم أشعر قط لحظة بغير التحمس المطلق لاجراءاتها . حتى فيما لحقني منها رذاذ . بانطلاق قذائف شكاوى التطهير في كل مكان . فقد كان في ظني وقد ظهر ذلك في كثير من كتاباتي قبل الثورة . ان مصر موبؤة تحت الحكم الفاروقي ، بداء الحزبية والنفعية والظلم الاجتماعي ، وكنا نتمنى لذلك تغييراً . بل لقد جاء في كتابي (شجرة الحكم) بعض عبارات عجيبة كأنها التنبؤ عن ضرورة قيام « حركة مباركة » هكذا بالنص ... وجاءت بعد ذلك فعلاً ، وسميت بهذا الاسم فعلاً في مبدأ ظهورها .

عندما أراد الوزير فصلي

ومضت الثورة في طريقها يحالفها النجاح ، ويحف بها تصفيق التأييد من الشعب . وكانت تضم في وزارتها الأولى بعض المدنيين . وكانت وزارة المعارف « التربية والتعليم » التي تتبعها دار الكتب قد عينت لها الثورة وزيراً من كبار رجال التعليم في العهد السابق وكان من اصدقائي . ولكنه مع ذلك تصرف معي تصرفاً غريباً . فقد حدث يومئذ أن ترجمت لي مسرحية إلى اللغة الألمانية

ومثلت في سالزبورج في مسرح الموزارتيوم ، المنسوب إلى الموسيقي موزارت . ودعيت إلى الحضور وسافرت . وكان احتفال أدبي فني أقام لنا فيه رئيس الاقليم مأدبة كبيرة . وحيونا هناك تحية كريمة وصفها سفير مصر في تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية مرفقاً به مقالات الصحف الالمانية . وعدت إلى مصر لأجد صديقنا وزير المعارف قد تقدم إلى مجلس الوزراء بطلب فصلي من وظيفتي طبقاً لقرار التطهير باعتبار أني موظف غير منتج . كل ذلك من خلف ظهري وأنا لا أدري شيئاً . ويظهر أن بعض الطامعين في وظيفتي قد أغرى الوزير بهذا الاجراء . وعلمت بعد ذلك ما تم . فقد انبرى له أحد قادة الثورة وأقدرهم وأقواهم شخصية . ذلك الذي بدأ اسمه يلمع من بينهم (جمال عبد الناصر) ، صاح في ذلك الوزير المدني قائلاً كما سمعت : (أتريد أن نطرد كاتباً عائداً إليناتحية من بلد أوربي ؟ . أتريد أن يقولوا عنا أننا جهلاء) وانتهى الأمر باخراج هذا الوزير من الوزارة ...

انه ولا شك من حسن الطالع أن تضع الظروف هذه الثورة في هذا الموقف الذي يبدو منه أن ضابطاً شاباً من رجال الجيش ، كان أحسن تصرفاً وأكثر تقديراً للمثقفين وفهماً للثقافة ، من رجل ناضج العمر من كبار رجال التعليم في العهد السابق ! ...

ولم اقابل عبد الناصر

وصار عبد الناصر يذكرها دائماً في أحاديثه مع الصحفيين

والمراسلين الأجانب : طردت وزيراً من أجل مفكر . ومع ذلك لم يخطر لي أن أشكره . لا بالمقابلة ولا بالمراسلة ولست أدري لماذا ؟.. ربما لأنه كانت قد تأصلت في نفسي عادة البعد عن رجال السياسة والحكم . على الرغم من أن الأسماء الكبيرة في البلد في كل مجال ، كانت قد سعت وطلبت مقابلة رجال الجيش الحاكمين . بل أذكر أن صحفياً لامعاً من أصدقاء عبد الناصر زارني يوماً في مكتبي بدار الكتب وأخبرني أن رئيس الحكومة (جمال عبد الناصر) يدعوني إلى تناول الشاي في بيته . دعوة خاصة لن يحضرها أحد غيرنا . فقلت له معتذراً « كيف أذهب إلى رئيس الحكومة وما أنا إلا موظف في درجة مدير عام . ان اتصالاتي هي مع وكيل الوزارة. وعلى أكثر تقدير مع وزيري المختص » . فضحك وقال : انه لا يدعوك بصفتك موظفاً بل بصفتك مؤلف « عودة الروح » التي قرأها ويقول أنها أثرت في تكوينه الوطني . فقلت له « ولو .. أرجوك ابعدني عن رجال الحكم » . فكان بعد ذلك كلما رآني قال أمام الحاضرين : « هذا هو الرجل الذي رفض مقابلة عبد الناصر » فابادر بتخفيف الوضع : « ليس شخص عبد الناصر بل الحاكم . أنا لم أقابل قط في حياتي رئيس حكومة وهو في الحكم فيقول ضاحكاً : « يعني تريد منه أن يستقيل ليراك ؟ » فأرد مبتسماً بالضبط هذا هو الحل .

البعد عن الحكم

وكان عبد الناصر كما سمعت . يدهش لابتعادي عنه : السنا نفعل ما فكر فيه وشعر به وكتب عنه ؟ . ان الثورة ثورته . الواقع أن هذا هو المعقول والمنطقي . ولكن ما يبعدني هو مبدئي المعروف الذي كتبت عنه كثيراً : ان الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالي . انه يريد أن يسمع منه تأييداً لا اعتراضاً ورسالة المفكر في جوهرها هي الصدق والحرية . وهو قد يخطئ ويخدع ويفقد الوعي ولكنه لن يخون رسالته عن وعي . واني أخشى دائماً أن تحجب الصداقة والقرابة والحب والعاطفة ، وحتى الكره والسخط ، النظرة الصادقة إلى حقائق الأشياء . ولقد حاولت على قدر المستطاع في كتابي « سجن العمر » أن أصور اقرب الناس إلي وهما الوالدان بما لهم وما عليهم تصويراً خالياً من القداسة التي اعتادها الناس في بلادنا ، نحو أهلنا ، وتعرضت بذلك لغضب الأحياء من ذوي القربى واستهجان المتحفظين من القراء ...

الحاكم المطلق

وسارت الأمور سيرها المعروف ، وأصبح عبد الناصر هو الرجل الأول في البلاد . وكان كل يوم يكتسب حب الناس وثقتها . حتى أولئك الذين استولى على أطيانهم للاصلاح الزراعي بدأ الكثير منهم يعتاد تحديد الملكية ويتأقلم . إلا الذين لا أمل في ولائهم . وبدأت البلاد تعتاد حكم فرد وثقوا به وأحبوه . والجماهير عندما

تحب لا تناقش . وخفتت شيئاً فشيئاً أصوات من اعتادوا المناقشة . وأخذ الحاكم المحبوب نفسه يعتاد الحكم الذي لا مناقشة فيه ، وأخذ الستار الحديدي يسدل رويداً رويدا بين الشعب وتصرفات الحاكم المطلق . كنا نحبه ولا نعرف دخيلة فكره ولا الدوافع الحقيقية لتصرفاته . كان القلب منا يخترق الستار إليه . ولكن العقل ظل بمعزل عنه . لا يصل إلى فهْم ما يجري خلف الحجب . لم نكن نعرف من امورنا أو الأمور الخارجية إلا ما يلقي هو به إلينا من فوق منصة عالية ، في عيد من الأعياد أو مناسبة من المناسبات . وكان يتحدث بمفرده الساعات الطوال . بغير كلفة . حديثاً يظهرنا أبطالاً بقيادته . ويظهر الدول الكبرى حولنا في صورة أقزام . فكنا نصفق اعجاباً وخيلاء . وعندما كان يخطب بقوة قائلاً عن دولة قوْية تملك القنابل الذرية : « إذا لم تعجبها تصرفاتنا فلتشرب من البحر » كان يملؤنا الفخر .

الثقة شلَّت التفكير ..

وليس بعجيب أن يتلقى الشعب في حماس العاطفة هذه الخطب بالتهليل والتكبير . ولكن العجيب هو أن شخصاً مثلي محسوب على البلد هو من أهل الفكر وقد أدركته الثورة وهو في كهولته أن ينساق هو أيضاً خلف الحماس العاطفي . ولا يخطر لي أن أفكر في حقيقة هذه الصورة التي تصنع لنا .. كانت الثقة فيما يبدو قد شلت التفكير.. كنت أحياناً استغرب أشياء وأقول لنفسي

أمن الصواب حدوث ذلك ؟ .. أذكر يوم جاءني صاحبي الصحفي اللامع صديق عبد الناصر بنسخة من كتاب « فلسفة الثورة » مهدى إلي من مؤلفه الزعيم . اني فكرت بعد قراءته : كيف يصحّ لسياسي أن يكشف ورقه للعالم هكذا ؟

اسرائيل توزع كتاب « فلسفة الثورة »

وحدث أني اطلعت بعد ذلك على مقال في جريدة فرنسية بقلم استاذ من اساتذة التاريخ والسياسة الفرنسيين . حلل الكتاب تحليلاً علمياً وبين ما فيه من أحلام وآمال وتصورات تكاد تشبه الامبراطورية الواسعة للدول العربية والأفريقية التي تنتظر الزعيم أن يؤلفها . أو على حد الكتاب نفسه في اشارته إلى مسرحية « بيرانديللو» الشهيرة « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » فهو يرمي إلى أن « دول العروبة وغيرها تبحث عن زعيم » . وأدهشني بعد ذلك ما جاء في بعض الصحف العالمية : ان كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه في الخارج جهتان في نفس الوقت : السفارة المصرية . والسفارة الاسرائيلية .

وبالطبع كان غرض السفارة الأخيرة من ذلك افهام العالم أن زعيماً من طراز هتلر قد ظهر في العالم العربي .. ولكن الحقيقة أن عبد الناصر رجل سلام . ولم يفكر قط في الحرب تفكيراً فعلياً . انه رجل عواطف وانفعال وخيال . وقد جاء بكتاب للصحفي اللامع (محمد حسنين هيكل) أن عبد الناصر في أوائل عهده ، كان

قد أعد خطبة يلقيها ، ويعلن فيها خطة أو رؤية للسلام في المنطقة . غير أنه سمع من السفير الأمريكي ، وقتئذ ، كلمة استقبله بها في زيارة فلم تعجبه الكلمة ، وانفعل وغير خطبته واتجاهه في الحال . وكان لهذا المسلك الانفعالي تأثيره على مصير الوطن كله .. كما سارت الأمور كلها بعد ذلك في شئون الدولة خارجها وداخلها على هذا المسلك و بهذا المحرك : « انفعال ورد فعل » .

الانفعال ورد الفعل

ومن يدرس بعناية الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التي وقعت في مصر على مدى حكم عبد الناصر ، يجد أن المحرك الخفي الحقيقي لها كان هو « الانفعال ورد الفعل » وليس التفكير الهادئ . الرصين الرزين المبني على بعد النظر . عبد الناصر لم يكن رجلاً سياسياً ولم تكن له قط طبيعة رجل السياسة ، التي يملكها رجال اتصل بهم وعرفهم ، مثل « نهرو» و« تيتو» ولكنه كان أقرب إلى طبيعة الكاتب الفنان الحالم العاطفي . ويظهر أن الظروف هي التي دفعته إلى طريق غير طريقه . ولو أنه ترك لطبيعته لكان كاتباً ناجحاً . ولعل هذا ما خطر له أول الأمر فقد اتجه بالفعل في مطلع شبابه إلى كتابة القصة . وكتب صفحات من قصة بعنوان « في سبيل الحرية » جعل اسم بطلها محسن . أيضاً كان بطل عودة الروح . ولكن الظروف حولته من مؤلف محسن على الورق إلى محسن نفسه ، أيضاً على أرض الحياة . فعاش مثله وتصرف تصرفاته

الشخصية الوطنية العاطفية الانفعالية . حتى في المسائل البعيدة عن السياسة وشئون الحكم تبدو طبيعته العاطفية والانفعالية .

انفعل من أجلي

فعندما حدث يوماً أن هاجمني بعض أدباء الشباب هجوماً مركزاً بغرض تحطيم الأصنام . وكانت المقالات تصدر كل صباح مليئة بالاتهامات ، للإطاحة بالكاتب والنزول به عن مكانه . لم آخذ أنا الأمر مأخذ الجد . ولم ألق بالاً إلى ذلك ولزمت الهدوء والصمت . وإذا بـ (عبد الناصر) هو الذي انفعل . وإذا هو في فورة انفعاله ودفعة رد الفعل ؛ يصدر قراراً بمنحي أكبر وسام في الدولة . وقد راجعه كبير تشريفاته ، بأن هذا الوسام لا يمنح إلا لرؤساء الدول وأولياء العهد . واني موظف في درجة وكيل وزارة لا يحق له حمل مثل هذا الوسام . فلم يأبه بكلامه ..

هذا الاندفاع العاطفي كنا نحبه منه . لأننا عشنا طويلاً فيما مضى مع رجال حكم حذرين مترددين باردين ، لا ينتقلون خطوة إلا بعد طلوع الروح . ولكم قاسينا من ذلك . فإذا ظهر لنا حاكم عاطفي متحمس يخطو بسرعة وبجرأة فإن هذا بالنسبة إلينا شيء جديد . ولم يكن انفعال عبد الناصر واندفاعه قد ظهرت له بعد آثار خطيرة أو نتائج مدمرة . بل كان فيه ما يحمسنا نحن أيضاً ويشعل فينا ، بالعدوى ، لهب الانفعال وروح النشاط .

اتصال على البعد

وأنا على وجه الخصوص كيف لا أحب رجلاً يحبني ويقف جانبي في كل موقف ، دون أن أراه أو أوجه إليه كلاماً أو شكراً .. لم أتصل به إلا على البعد . وفي بعض المواقف القومية التي رأيت من واجبي أن أنبهه إليها أو أشجعه عليها .... مثل ذلك اليوم الذي جمع فيه لجنة تحضيرية من أهل الرأي ، تمهيداً لعقد المؤتمر القومي ... كنت في حجرتي مريضاً أتابع على شاشة التليفزيون جلسات هذه اللجنة التحضيرية . كانت فيما أذكر برياسة « أنور السادات » ولكن « جمال عبد الناصر » كان يحضرها ويشترك في مناقشاتها . وقد أعجبني في هذه المناقشات روح الحرية . وكان الجدل يحتدم أحياناً بين بعض الأعضاء وجمال عبد الناصر رئيس الجمهورية ، حول مفهوم الديمقراطية ، وقد ظهر « عبد الناصر » في تلك المناقشات المحتدمة ، واسع الصدر طويل الصبر ، يبدي رأيه ويشرحه ويتلقى المعارضة القوية بحجج أمام حجج دون تبرم أو ضجر ، حتى استبانت وجهات النظر ، وقوي عندي الأمل في اتجاه الحكم في مصر ؛ الاتجاه الصحيح .

ولم أتمالك أن أرسلت إليه ، برقية أقول له فيها اني رأيت وأنا على فراش المرض صورة جديدة لمصر تتشكل أمامي . فرد علي ببرقية يشكرني ويتمنى لي الصحة . وإذا المؤتمر القومي ينعقد . وإذا المناقشات فيه قد اختفت . وإذا الأعضاء الذين كانوا يناقشون في

الديمقراطية المطلوبة لزموا الصمت المطبق لا في المؤتمر وحده ولكن في الحياة العامة . وكأن شيئاً من الاهمال أو عدم الرضى قد شملهم وأصبح هذا المؤتمر وغيره من الاجتماعات مجرد كتل بشرية لا عقل لها ولا تفكير يميزها ، ولا رأي مستقل يصدر عنها وإنما هي أذرع تلوح وأياد تصفق وأفواه تهتف ، والزعيم بقامته الفارعة قائم على منصة عالية يتكلم وحده الساعات الطوال ، لا يقاطعه غير صياح هستيري : « ناصر ، ناصر ، ناصر » وشعارات تنطلق من كل ركن ، مما يستحيل معه الظن بأن أحداً من الحاضرين قد فهم في هذه الضوضاء شيئاً مما يقول . فقد أصبحت الحناجر هي العقول . وما كان يبدو على الزعيم ضيق بذلك ، وإنما كانت ابتسامة الرضى ترتسم دائماً على شفتيه .

أصبح المعبود المعصوم

لقد أصبح معبود الشعب . ولست أدري هل كان هذا حلماً قديماً له ؟ ... بدأت أسائل نفسي بعد أن تأكدت مظاهر العبادة لشخصه على مر الأيام ، ما الذي كان يعجبه في كتاب « عودة الروح » ؟ أترى هل الفقرة التي تروي ما معناه أن مصر تحتاج دائماً إلى معبود من بينها ؟ فلما قرأ ذلك وهو شاب صغير حلم بأن يكون هو ذات يوم المعبود ؟ وليس هذا بالشيء المكروه . فكل انسان له الحق أن يحلم بأن يكون معبود الجماهير . ولكن المكروه بل الخطر هو أن يكون للمعبود البشري من القداسة ما يجعله معصوماً من الخطأ في

نظر الناس ، وما يجعل سلطانه يشل العقول فلا ترى غير ما يرى ، ولا يسمح لها برأي يخالف رأيه . وهذا ما حدث بالفعل . ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث نرى الأمور على مثل هذه الصورة : العقل المصري وقد ختم عليه بسبعة أختام ، فلم يعد يجرؤ على أن يخرج علناً رأياً مخالف لرأي الزعيم المعبود . أعوام طويلة مضت وفي مصر صحافة وفيها مجلس نيابي ، وفيها اتحاد اشتراكي ، هو الحزب الواحد الذي يضم كل عناصر الشعب ، ويقال أنه أعلى سلطة في البلاد .... هل سمع صوت واحد على صفحات جريدة ، أو كتاب أو مجلس نيابي ، أو اجتماع عام ، جرؤ أن يبدي رأياً يختلف عن رأي « عبد الناصر » ؟ وإذا كان قد جرؤ فهل تمكنه السلطة من توصيل هذا الرأي المعارض حيث يسمعه الناس ويعرفه الآخرون ؟ . أقول أن هذه ربما كانت أول مرة في تاريخ مصر الحديث يحدث فيها أن يظهر معبود له من القداسة والعظمة والسلطة ما لم يكن يملكه الأنبياء والرسل . فالأنبياء المرسلون من السماء كانوا يجدون من يجادلهم ويناقشهم ويعارضهم .

سعد المعبود كان حراً

ولقد عرفت مصر في تاريخها القريب زعيماً معبوداً ، هو « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ . ذلك الذي التفت حوله مصر بأكملها ، ووضعت فيه أملها . وأصبح اسطورة في نظر الفلاحين ، حتى لقد سمعت وقتئذ في الأرياف من يؤكدون أن بعض أوراق

شجر القطن قد نبتت واخضرت ووجد مكتوباً عليها اسم « سعد زغلول » ... هذا الزعيم لم تمنع عبادة الشخص له من وجود معارضين يخالفونه الرأي ، وصحف وخطب تمتلئ بالآراء والأقوال التي تناهضه وتقف ضده ، بل ان صحيفة معارضة تناولته بالتجريح وهو زعيم الأغلبية ورئيس الحكومة ، واحتكم إلى القضاء ونشرت القضية ، ولكن القضاء المصري العادل لم يعط الحق لرئيس الحكومة وحكم ببراءة المعارض .

وأنا شخصياً على الرغم من حبي لـ « سعد زغلول » وحرصي على سماعه وهو يخطب من شرفة بيته المسمى « بيت الأمة » اقتنعت بالرأي الذي يخالف رأيه في مسألة من المسائل ، كان ذلك يوم انقسمت الآراء فيمن يذهب إلى لندن لمفاوضة الانجليز في قضية الاستقلال لمصر . كان على رأس الوزارة وقتئذ « عدلي يكن » وكان رجلاً مستقيماً موثوقاً به ، وطلبت الحكومة البريطانية أن يكون المفاوض المصري ذا صفة رسمية مثل رئيس الحكومة المصرية ، لأن الطرف البريطاني سيكون هو أيضاً ذا صفة رسمية . ولكن « سعد زغلول » أصر على أن يكون هو المفاوض باعتباره زعيم الأمة ، وأصرت بريطانيا العظمى التي خرجت منتصرة من الحرب الكبرى الأولى ، وأصبح نفوذها في العالم يشبه نفوذ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مجتمعين ، كانت حجتها ان الحكومات لا تفاوض إلا الحكومات . ولا يمكن لحكومة مسئولة ان تفاوض زعيم ثوار ، غير مسئول رسمياً ، حتى وان كان فعلياً زعيم أمة .

وخطب « سعد زغلول » خطبته المشهورة التي وصف فيها مفاوضة (عدلي يكن) رئيس الحكومة المصرية مع حكومة جلالة الملك جورج في ذلك الوقت بقوله : « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » .... وكان ان تعقدت الأمور وكاد يتوقف النشاط السياسي من أجل طلب الاستقلال . وقال رأي من الآراء : ما الذي يضير « سعد زغلول » ـ ان يترك « عدلي يكن » يذهب ويفاوض ويأتي بنتيجة مفاوضته ويعرضها على الأمة بزعامة « سعد زغلول » ، وله عندئذ أن يرفض أو يقبل . هذا ما قاله « عدلي يكن » أيضاً ورأى فيه تقوية لمركزه في المفاوضة ، لأنه سيخيف الانجليز بـ « سعد » الرابض المنتظر صاحب الكلمة النهائية آخر الأمر ، وكان هذا هو المسلك الذي اتبعه زعيم الأمة التركية « كمال أتاتورك » . في ذلك الوقت بالذات كان على تركيا أن ترسل وفداً يفاوض في مؤتمر الصلح فلم يذهب (مصطفى كمال) وترك رئيس الوزارة (عصمت اينونو) يذهب ويفاوض . فكان « عصمت اينونو » إذا عرض عليه أمر صاح : لن يقبل هذا « مصطفى كمال » والأمة معه . وقد أعجبني هذا الرأي ، ولم أقف في جانب رأي « سعد زغلول » وأنا في شبابي الأول ، على الرغم من حبي له واعجابي به وبخطابته الرائعة البليغة . تلك هي الزعامة والعبادة التي تقوم على الرأي الحر ، ولا تقوم على الدبابات والمعتقلات ... ومن العجب أن يكون مفهوم الرأي الحر قد استمر في مصر على نحو ما حتى في العهود التي بدأ الفساد يدب فيها .

فلقد حدث أن جاء « مصطفى النحاس » إلى الحكم على اثر انتخابات ظفر فيها بالأغلبية . وكنت يومئذ مديراً لادارة الارشاد بوزارة الشئون الاجتماعية ، فنشرت مقالاً في جريدة الأهرام بعنوان « الخواتم الثلاثة المزيفة » أشير فيه إلى أن الأحزاب الموجودة في البلد كلها مزيفة .

ومصطفى النحاس

فهاج « النحاس باشا » وهو يرأس مجلس الوزراء : « يقول عنا أننا مزيفون مع أننا فزنا بثقة الأمة وحصلنا على الأغلبية الساحقة» كان هذا كل شيء ، ولم أمس بأذى ، مع اني كنت موظفاً في الدولة ومدير الارشاد في الحكومة ، الذي من واجبه على الأقل أن يكون مرشداً وداعية لحكومته ، لا مهاجماً ومتهماً لها بالتزييف ، ولكني كنت في نظرهم كاتباً حراً قبل كل شيء ، يعبر عن رأيه الشخصي ، وليس مدفوعاً من حزب آخر يعمل لحسابه ولذلك احتملوا الرأي الحر وان كان قد يضايقهم ..

على أن فكرة الزعيم المعبود الذي لا تتنافى عبادته مع نقده ، قد رأيناها ممثلة في فرنسا في عهد شارل ديجول . فهو أيضاً على الرغم من تقديس الفرنسيين له باعتباره بطلاً قومياً ، فان ذلك لم يمنع من وجود المعارضين لرأيه في البرلمان والصحف والكتب . وكان هو ، أول الضاحكين لما يرسم له من كاريكاتور ونكات وانتقادات تسخر منه في بعض المجالات ، وكانت أقسى الصحف هجوماً

عليه وعلى سياسته الخارجية والداخلية مجلة « الاوبزرفاتور » . كان يكتب فيها رئيس تحريرها السياسي (شريبير) معارضاً بعنف آراء ديجول . فيرد عليه في نفس المجلة الكاتب الروائي « فرانسوا مورياك » مدافعاً عن صديقه (ديجول) . الذي منحه أكبر وسام في فرنسا . ولذلك عندما جاء (سارتر) في زيارة لمصر منذ أعوام سألني ، لماذا لا أدافع أنا أيضاً عن عبد الناصر وأكتب فيه كتاباً يمجده ، كما فعل « مورياك » في كتابه المعروف عن ديجول ؟ فقلت « لكي يكون هناك دفاع يجب أن يكون هناك هجوم . وعبد الناصر لا يهاجمه عندنا أحد . ولا يجرؤ في بلادنا أحد على مخالفة رأيه » .

سحر وحلم

ولكن هل هناك رأي له يقتضى أن تخالفه ؟ ربما كانت هناك أشياء . ولكنه غمرنا في سحر أو حلم لا ندري كيف غمرنا فيه . ربما كان سحره الخاص كما يقولون . وربما كان الحلم الذي جعلنا نعيش فيه بتلك الأماني والوعود . بل تلك الصور الرائعة لانجازات الثورة التي حققها لنا ، وجعلتنا أجهزة الدعاية الواسعة بطبلها وزمرها وأناشيدها وأغانيها وأفلامها ، نرى أنفسنا دولة صناعية كبرى ورائدة العالم النامي في الاصلاح الزراعي ، وأقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط . وكان وجه الزعيم المعبود وهو يملأ شاشة التليفزيون ، ويطل علينا من فوق منصات السرادقات وقاعات

الاجتماعات ، ويحكي لنا الساعات الطوال هذه الحكايات ويشرح لنا كيف كنا وكيف أصبحنا ، بلا احد يناقش أو يراجع ، أو يصحح أو يعلق ، فما كنا نملك إلا أن نصدق ثم نلهب الأكف بالتصفيق .

تنظيم التصفيق والهتاف

غير أن هذا النظام لم يكن يكتفي بالتصفيق العفوي والهتاف المرتجل ، بل ان الاعتماد الأساسي عنده على التدبير والتنظيم . وقد رأيت بنفسي ولم أصدق عيني . قابلت ذات يوم رجلاً من أهل الريف أعرفه . سألته عن سبب وجوده في القاهرة ، فقال انه متصل بلجنة الاتحاد الاشتراكي في قريته . وأنهم أحضروه هو وزملاء له في القطارات باستمارات سفر أو نحو ذلك للاحتشاد في استقبال الرئيس جمال عبد الناصر عند عودته من الخارج في مناسبة من المناسبات . لأن الاستقبال شعبي كما يقال عادة . وان اقامتهم وطعامهم على حساب الدولة . وأن عليه هو وزملاؤه أن يهتفوا له طبقاً للشعارات المطبوعة والموزعة عليهم . وأخرج لي من جيبه بالفعل ورقة اطلعني عليها . فدهشت . لقد كان مكتوباً عليها بحروف مطبوعة هذه العبارات : هتاف جماعي : « ناصر ناصر ناصر » .. ثم هتاف فريق : « فليحيا ناصر العروبة » ثم هتاف جماعي : « فليحيا بطل الثورة » .. « القائد البطل » .. « زعيم الأمة العربية » .. الخ . أشياء من هذا القبيل ، وسألت : كيف يهتفون من هذه الورقة . فقال ان الورقة لا تظهر فهي للحفظ فقط

حتى لا ننسى الكلمات ، وانه معين لكل جماعة منهم أربطة ، أول الصف أو في الوسط ، أو على رأس كل مجموعة يشير إليهم بالبدء .. كما يحدث في كورال الموسيقى وكورس المسرحيات .

كنت أظن الشعبية تنبع فقط من القلوب . أو حتى من صور الأماني والوعود والأوهام والأكاذيب . ولكني ما كنت أظن حتى تلك اللحظة ، أنها يمكن أيضاً أن تصنع وتؤلف تأليفاً وتوزع لها أوراق هتاف كأنها نوتة موسيقية للغناء .

ومع ذلك وهنا العجب : كيف استطاع شخص مثلي أن يرى ذلك ويسمعه ، وأن لا يتأثر كثيراً بما رأى وسمع ، ويظل على شعوره الطيب نحو عبد الناصر : .. أهو فقدان للوعْي ؟ أهي حالة غريبة من التخدير ؟ .

اتفاق الجلاء !

لم تكن مصر على أي حال في مجموعها قد شعرت بالضيق من شيء . على العكس ، لقد كنا نهضم بسهولة كل ما نضيق به ولا يبقى في نفوسنا منه أثر . فقد كنا مستبشرين بالغد . ولم تكن آذاننا تطرب إلا للنشيد الواحد الذي يعزف في كل مكان « مكاسب الثورة » وحتى الحقود أو الموتور الذي كان يهمس بالتشكيك كان يكفي الرد عليه بانه ما دامت ليست هناك خسائر فهذا في ذاته مكسب . ومن يحب الثورة مثلي كان أميل إلى التغاضي والتسامح ،

عندما يتضح الشك ويكاد يسفر عن يقين . من ذلك أنه جاءني ، يوم أن وقع رجال الثورة على وثيقة جلاء الانجليز ، بعض رجال الأحزاب السابقة واطلعوني على بنود الوثيقة قائلين لي انها نفس البنود والشروط التي سبق عرضها على مصر ورفضتها الأحزاب جميعاً . فمن بين هذه البنود شرط يبيح للانجليز العودة إلى احتلال مصر ، إذا تعرضت المنطقة لأخطار الحرب كما أن السودان وبقاؤه مرتبطاً بمصر ، كان دائماً الشرط الأساسي ، لكل مفاوض مصري على اختلاف الأحزاب . واذكر بالفعل اني كنت جالساً في مأتم للعزاء في وفاة أحد المعارف ، كان ذلك قبل الثورة بنحو عشرة أعوام . فدخل مصطفى النحاس وكان يومئذ فيما أظن خارج الحكم ، ، وأخذ يتكلم مع من معه بصوته المرتفع المسموع ويقول ان الصخرة التي كانت تتحطم عليها المفاوضات المصرية دائماً من أجل اجلاء الانجليز هي السودان ، ولو سمح لنا بطرح مسألة السودان جانباً لتم الجلاء منذ عشرينات هذا القرن . ولكن ما من سياسي في البلد كان يسمح لنفسه بذلك . وما كان البلد ليسمح له . ومضت الأعوام وجاءت الثورة وتركت السودان ووقعت الوثيقة مع الانجليز على الجلاء المشروط أيضاً بعودتهم .

ففيم اذن كان انتظار مصر ثلاثين عاماً ؟ كانت هذه الملاحظة تبدو مقنعة . ولكني كنت أقول : ما دمنا قد خلصنا من الاحتلال على أي حال فهذا خير من التجمد الدائم . والعبرة بالتحرك والالتفاف إلى بناء نهضة مصر . والثورة قد أزالت هذا الدمل من

جبين مصر لتفرغ إلى ما هو أهم . وهي ماضية الآن فعلاً نحو النماء الاقتصادي المنشود .

ومشروع السد العالي

وها هوذا مشروع السد العالي سيكون ـ كما تصفه لنا الثورة ـ فاتحة خير وبركة . وهو مشروع كان موجوداً في أدراج حكوماتنا السابقة . ويبدو أنه فحص ولم ينفذ ، اما لضخامة تكاليفه واما لأسباب أخرى لم تكشف لنا بوضوح ولم تتم مناقشته مناقشة علنية مفتوحة ليعرف الناس الرأي وضده ، ولكن الثورة تبنته فآمنا به جميعاً . ولم نسمع بأحد عارضه ، إلا مهندس كبير هو الدكتور عبد العزيز أحمد ، ويظهر أنه أحس بغضب الثورة عليه ، فغادر البلاد وعندما فاز في غيبته بجائزة الدولة التقديرية في العلوم ، وقد اختاره لها أكابر علماء البلد من زملائه وتلاميذه ، رفضت الثورة منح الجائزة له . ولم تعرف بشكل مفصل أسباب معارضته للمشروع . لأن الآراء المعارضة حتى في المسائل العلمية لا تأخذ حظها من النشر .

بلا مناقشة

فأسلو ب الثورة لم يقم على أساس مناقشة الأشياء . وهو الأسلوب الذي كنا نعرفه في مصر من أيام ثورة ١٩١٩ . بل كنا نعرفه قبل ذلك . وأذكر في شبابي الأول أن أرادت الحكومة إنشاء خزان . ولعله خزان جبل الأولياء ، فأنا أكتب من الذاكرة ،

فإذا المشروع يناقش علينا في حضور الشعب . ولم يكن في البلاد بعد برلمان . وحدث أن عارض المشروع أحد المهندسين المصريين فأعلن عن محاضرة في قاعة مسرح « برنتانيا » (مكان سينما كايرو بالاس الآن) ، فذهبنا . وكان صباح يوم جمعة . وامتلأت الصالة بالناس . وجعل المهندس المصري يفسر رأيه بالرسم والأرقام على سبورة ويفند ويعارض رأي المهندس الانجليزي (ولكوكس) ، ومصر وقتئذ تحت الاحتلال الانجليزي ولكن ذلك لم يمنع مصر من أن تحاول بنفسها أن تخلق فيها الرأي العام الذي يسمع ويناقش ويميز ويحكم ... غير أننا عندما قامت ثورة ٥٢ وأحببناها وأيدناها بقلوبنا طمعاً في مستقبل أفضل ، لم نكن نناقش أي مشروع تؤيده . وربما لم نكن نستطيع . ولعلها هي لم ترد أن تشجعنا على ذلك . ولذلك بادرت هي للفور تسعى إلى تنفيذ مشروع السد العالي واعتمدت في تنفيذه على أميركا بالطبع . فأمريكا هي التي وقفت بجوار الثورة عند قيامها وأسكتت الانجليز المرابطين في القناة ، والا لكانوا جاءوا بدباباتهم وطائراتهم وأجهضوا الثورة في نصف ساعة . ولكن العلاقات بين الثورة وأمريكا ما لبثت أن توترت للأسباب المعروفة . وكان أن قال وزير خارجية الولايات المتحدة مستر دالاس ذلك القول الذي أغضب عبد الناصر . فكان رد الفعل الانفعالي المعتاد وصدر تأميم القناة مع دفع تعويضات . وفي وقت لم يبق فيه سوى أقل من عشرة أعوام لانتهاء امتياز هذه القناة ، وعودتها قانوناً إلى ملكية مصر

بدون دفع أي شيء . وكانت مصر تعد نفسها بالفعل لاستلام القناة . وأذكر أن صديق عمري المرحوم حلمي بهجت بدوي، الذي زاملني في مراحل الدراسة حتى باريس ، وساكنني في شقة الجيزة يوم كان هو أستاذاً بكلية الحقوق وكنت مديراً لتحقيقات المعارف ، عندما عين وزيراً للتجارة والصناعة في عهد الثورة ، وكان قبلها قد رفض أن يكون وزيراً للمالية في حكومة حسين سري باشا ، فكر في مشروع يسير جنباً إلى جنب مع القناة بعد استلامها . هذا المشروع هو مد أنابيب بترول من السويس إلى بور سعيد أو الاسكندرية . وذلك لحث الشركة العالمية على سرعة تسليمها القناة لمصر ، ولأسباب أخرى اقتصادية . وقطع شوطاً كبيراً في دراسة هذا المشروع والاعداد لتنفيذه ومفاوضة الشركات ليعرف التكاليف ، وكانت يومئذ مشجعة غير مرتفعة . ووافق عبد الناصر على هذا المشروع ثم عاد فرفضه . وها نحن اليوم نعود إليه ونفكر في تنفيذه .. وكان حلمي بهجت بدوي في مهمة بأوروبا يوم تأميم القناة . وفوجئ بذلك . وعاد إلى مصر فعينه عبد الناصر تقديراً لكفاءته رئيساً لهيئة القناة بعد تأميمها . وكان هو أول رئيس لها شارك في إدارتها بكفايته الفذة . حتى وافاه الأجل المحتوم .

العدوان الثلاثي « المفاجيء » ..

وبعد التأميم قامت القيامة المعروفة . وكنت أنا أول المتحمسين

لهذا التأميم وكان يجيئني من يقول لي بارتياع ان هذا التأميم جنوني . إن هذا التأميم كارثة على البلد . فكنت أهب في وجه من يقول ذلك هبة غضب شديد . وعندما جاءت الجيوش والطائرات إلى بور سعيد وبدأ العدوان الثلاثي أرسلت برقية إلى عبد الناصر أقول فيها « إني وأنا كهل يسير نحو الستين مستعد لحمل السلاح » ... كنت في ثورة ١٩٥٢ وفي كهولتي أفكر بقلبي ، وكنت في ثورة ١٩١٩ وفي شبابي أفكر بعقلي .. ولست أدري سبباً لذلك .. قناة السويس كانت دائماً مطمع أنظارنا ، وها هي ذي في يدنا . والباقي لا يهم . ولكن كانت هناك مع ذلك ومضات فكر تجعلني أتأمل بعض الأمور وأعجب لها . فلا أنس خطبة الجمعة المشهورة التي أعلن فيها عبد الناصر أنه لم يكن يظن أن بريطانيا ، ستشترك حقاً في العدوان على مصر مع اسرائيل ، لأن ذلك في نظره يعرضها لغضب العرب . وأنه لم يعرف باشتراكها إلا عند سماعه أزيز الطائرات البريطانية ، فصعد إلى سطح منزله ليتأكد من ذلك بنفسه . قلت في نفسي : صح النوم .. كيف كان رئيس دولتنا يجهل هذا الأمر ، وأنا الذي ما ارتبت لحظة في أن بريطانيا جادة في الحرب ، منذ أن قرأت وسمعت البرقيات والاذاعات تتحدث عن اجتماعات ايدن بقواده . واصدار الأوامر إلى السفن الحربية في مالطة والقاعدة الجوية في قبرص بالاستعداد . بل ان بعض هذه السفن قد أعدت فعلاً وتحركت بالجنود في اتجاه الشرق الأوسط ، لعل عبد الناصر قد فهم أن هذا كله من قبيل التهويش . ولكني أنا

قد أخذت الأمر مأخذ الجد لأني استبعدت على حكومة جادة مسئولة في دولة كبريطانيا تعد الجيوش والسفن وتعبئ الجهود ، وتنقل الجنود وتتكلف النفقات لمجرد التهويش . والموقف لم يكن يستدعي ذلك لأنه كانت هناك حلول معروضة بالفعل . ولكن لأسباب مختلفة كان إيدن كما ظهر من لهجته وإصراره قد قرر انتهاز الفرصة لإعادة النفوذ البريطاني إلى المنطقة .. كيف إذن خطرت لعبد الناصر هذه الفكرة : ان إيدن عندما كان يلوح بالحرب ويجري الاستعدادات لها على هذا النحو إنما كان ذلك مجرد تهويش ؟ ..

يهوّش بالحرب

إن الإنسان أحياناً يرى الأشياء والأشخاص من خلال طبيعته . فهل كانت طبيعة عبد الناصر هي التهويش ؟ . إذا راجعنا ظروف حرب ١٩٦٧ ونشر جيوشنا كلها في سيناء بشكل استعراضي هائل ، وتكديسنا هناك لكل دباباتنا الجديدة والقديمة ، وكل جنودنا المدربين وغير المدربين ، تضخيماً للعدد وتكبيراً للمظهر وإرهاباً بالمنظر ، دون أن تكون هناك نية هجوم حقيقي ، نجد أن المقصود هو الوصول إلى الهدف بالتهويش وليس بالعمل الفعلي . وهذا يؤكد ما أعتقده من أن عبد الناصر في داخليته رجل سلام . على الرغم من كلامه العنيف ـ انه رجل يريد السلام ويهوش بالحرب . في حين أن إسرائيل تريد الحرب وتهوش بالسلام . وبذلك خدعت العالم ، وجعلت نفسها في صورة الأمة الضعيفة

المسالمة المهددة بعدوان دولة تفوقها عدداً وتجعجع بالحرب لتلقي بها في البحر . ومن يهوش بالسلام ويريد الحرب يكسب الحرب . ومن يهوش بالحرب ويريد السلام يخسر الحرب ويخسر السلام . وهذا كان حالنا ...

كذلك استمعنا في خطبة الجمعة المشهورة أيضاً إلى ذلك الخبر المطمئن الذي أعلنه الرئيس عن نجاحنا في سحب جيوشنا من سيناء عام ١٩٥٦ وكانت قد اندفعت إلى هناك عند بدء العدوان الثلاثي ، فلما رأى الرئيس أن الهزيمة في الأفق أصدر أمره في الحال بالانسحاب ، وقد تم على أحسن وجه وحمد الله وحمدناه معه .

• ونفس الخطة سنة ١٩٦٧

ويظهر أن رئيسنا قد حفظ هذه الخطة حفظاً . وكررها بحذافيرها في حرب ١٩٦٧ . ذلك أنه ما كادت الهزيمة تقع فيها حتى بادر باصدار أمر الانسحاب المعهود ... ولكن شتان بين الحالين والظرفين والوضعين .. في العدوان الثلاثي كان جيشنا في بداية زحفه فأمكن سحبه . وكانت الحملة مركزة على بور سعيد ، وكانت أكبر دولتين في العالم متفقتين على ضرورة وقف الحملة في الحال وانسحاب المعتدين . وكانت هذه أول مرة في نظر العالم المتعجب تتفقان فيها على شيء . وهددتا معاً تهديدهما العنيف المعروف ، فلم يجد المعتدون بداً من التراجع على الفور . وأزيلت

آثار العدوان بسرعة لا تخطر على بال . وهرول العدوان الثلاثي راجعاً من حيث أتى فلم تمض ثلاثة شهور حتى كان كل شيء قد عاد إلى أصله . وكأن شيئاً لم يقع ، ولكن ما كل مرة تسلم الجرة .. وكلمة إزالة آثار العدوان ليست مما يحفظ حفظاً ويتحقق بسهولة في كل الأحوال . ففي العدوان الثلاثي كانت الصورة مختلفة . فالأسدان الكبيران ما كانا يريدان السماح لبعض وحوش صغيرة أن تبسط نفوذها على الشرق الأوسط وتتحكم في قناة السويس . فهبا معاً هبة واحدة وزأرا الزئير الذي أخاف الضبع والذئب والثعلب الصغير ، فهربت جميعاً تاركة خلفها الفريسة في الأرض . لا حول لها ولا طول . وكانت بور سعيد قد سقطت في أيدي المعتدين من أول وثبة وانتهى أمرها . كانت الأسماعيلية في متناول المخالب والأنياب . ولكن الفزع من الأسدين جعل هذه المخالب والأنياب ترتد عن الفريسة وتولي الأدبار ...

الفريسة تهتف انتصرنا ...

ونهضت عندئذ الفريسة التي نجت بمعجزة وأخذت تصيح في الآفاق : انتصرنا .. انتصرنا ... وتزعق الأناشيد في الأبواق ، مشيدة بمعركة تماثل معركة ستالينجراد ، قيل انها في بور سعيد .. وقد لا يكون في ذلك ضرر ولا بأس . فما من عيب في رفع الروح المعنوية للشعب ولكن الضرر هو أن يكون الغرض هو خداع الناس ، وليس رفع الروح ، أن نتلاعب بكلمة النصر لنخفي

عن الشعب أسباب عجزنا عن الدفاع عن أرضنا . وقد ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد . فقد كان من جراء خداعنا لأنفسنا وتصديقنا للأكاذيب التي نذيعها عن أنفسنا وللتهاويل التي نضعها ونطلقها في الاذاعات والأناشيد والاغنيات أن قمنا ننشط للمغامرات الحربية .

مغامرة اليمن

فما كادت قناة السويس تستقر في أيدينا باعجوبة في عام ١٩٥٦ ونرى ذهبها يلمع في أكفنا ، حتى مضينا نلقي به على تلال اليمن . وكانت قبائل اليمن التي نريد استمالتها إلى جانبنا لا ترضى بغير الذهب . فكانت تلقى إليهم من طائراتنا الزكائب الممتلئة بالأصفر الرنان . كما كانت ترمى من الجو لجيوشنا أطنان التموين والغذاء من صفائح الجبن الفاخر والمعلبات واللحوم والفواكه . ولكن الشمس الحارقة وعدم وجود ثلاجات كان يفسد هذه الأطعمة ، فتترك في أماكنها مكدسة وقد لعب فيها الدود وانتشرت منها رائحة العفن ، فلا يقربها أحد ، وأهل مصر من الجياع والمحرومين لا يعرفون أن طعامهم هذا الذي يتمنونه ملقى للحشرات على تراب اليمن السعيد . وهل استملنا مع ذلك قبائل اليمن بذهبنا ؟ قيل ان القبائل حتى الموالية لنا ، كانت تأخذ ذهبنا بالنهار وتترصد لضباطنا وجنودنا في الليل ، فتصطادهم وتجز رؤوسهم وتبيعها للطرف الآخر غير الموالي ، ثم بعد ذلك انتهى الأمر باليمن كلها أن سارت مخالفة لمصر في اتجاهها السياسي .

إن تاريخ حرب اليمن سيكتب يوماً في صفحات صادقة لنعرف حقيقة ما جرى هناك . وماذا كانت النتيجة التي خرجنا بها ؟ إن من المؤكد الآن هو أنه بالإضافة إلى الأرواح التي ضاعت من جيوشنا وتقدر فيما يقال ، بعشرات الآلاف من الرجال ، فإن المعروف أيضاً أن غطاء الذهب الذي نملكه قد ضاع بأكمله في هذه الحرب الضائعة .

وحرب وهزيمة ثالثة

ولكن هل اكتفينا بحربين وهزيمتين ؟ لا ... لا بد من الثالثة ... وكانت حرب وهزيمة ١٩٦٧ . أي أنه في مدة نحو عشرة أعوام من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ قد استهلكنا ، أو على الأصح ، استهلكتنا ثلاث حروب بثلاث هزائم ، لا ندري بالضبط كم كلفتنا من آلاف الأرواح ، ولا كم من آلاف الملايين من الجنيهات إنما الذي ذكر ونشر هو أن ما خسرناه في الحروب الأخيرة وحدها يقدر بنحو أربعة آلاف مليون جنيه . أي كما قيل أيضاً ان هذا المبلغ لو انفق على قرى مصر البالغ عددها أربعة آلاف قرية ، لكان نصيب كل قرية مليون جنيه ، تخلقها خلقاً جديداً وترفعها إلى مستوى قرى أوربا ... ولكن قرانا المصرية بقيت على حالها المحزن التعس وفلاحنا المسكين بقي على جهله ومرضه وفقره . وراحت آلاف الملايين التي جاءت من عرق مصر لتذهب في الوحل . وفوقها هزيمة منكرة . بل فوق

الهزيمة المنكرة أكثر من خمس سنوات حتى اليوم تمر على مصر ، وهي راكدة بلا حرب ولا سلم تنفق على جيشها المعطل من الأموال ما يكفي ـ كما قال محمد حسنين هيكل في مقاله بالأهرام بتاريخ ٢١ يولية ١٩٧٢ـلبناء السد العالي مرتين ، أو سدين عاليين كل عام نبنيهما ثم نهدمهما ليسقطا في التراب ...

ما حكم التاريخ ؟

ما هذا الجنون ؟ وماذا سيقول التاريخ في هذا الذي جرى في عهد هذه الثورة ، وهو الذي قال ما قال عن عهد الخديوي اسماعيل ، لأنه استدان بضع عشرات من الملايين انفقها في بناء قصور بقيت لنا على كل حال حتى الآن ، كمنشآت استخدمتها المصالح والوزارات على مدى سنوات ، ثم في بناء أشياء أخرى مثل دار الأوبرا التي انتفعنا بها كمصدر اشعاع فني وأدبي على مدى أجيال ، وفي غير ذلك مما سمي في وقت ما نزقاً ، وما هو ، فيما يمكن أن يقال إلا بعض مظاهر الحضارة العصرية التي أراد لمصر أن تلحق بها ... وإذا كان التاريخ قد أدانه ، فهل نطمع في أن يبرئنا نحن ؟ اني أرجو ان يبرئ التاريخ عبد الناصر . لأني أحبه بقلبي . ولكني أرجو من التاريخ أن لا يبرئ شخصاً مثلي ، يحسب في المفكرين ، وقد اعمته العاطفة عن الرؤية ففقد الوعي بما يحدث حوله . لقد كانت ثقتي بعبد الناصر تجعلني أحسن الظن بتصرفاته ، والتمس لها التبريرات المعقولة ،

وعندما كان يخالجني بعض الشك أحياناً ، وأخشى عليه من الشطط أو الجور كنت ألجأ إلى افهامه رأيي عن بعد وبرفق وأكتب شيئاً يفهم منه ما أرمي إليه . فقد خفت يوماً أن يجور سيف السلطان في يده على القانون والحرية فكتبت (السلطان الحائر) . ثم خفت أن يكون غافلاً عما أصاب المجتمع المصري قبيل حرب ١٩٦٧ من القلق والتفكك ، فيعتمد عليه في الإقدام على مغامرة من المغامرات فكتبت (بنك القلق) . وهي كلها كتابات مترفقة بعيدة عن العنف والمرارة ، لمجرد التنبيه لا الإثارة ، وكما علمت فقد قرأها وفهم ما أقصده منها . ولكنه فيما ظهر لم يأخذ بها ، بل اندفع في طريقه ... ولست أبرئ نفسي بهذا لأن اداتي الحقيقية هي فقدان الوعي ، وأنا في الشيخوخة وبعقل يعيش بالتفكير ...

آية السخرية

إن ما حدث لي يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ وما بعده لآية من آيات السخرية التي تثير الدهشة والعجب ... كنت متهيئاً للخروج في الصباح ، وإذا صفارات الإنذار تدوي على غير انتظار ، فحسبتها مجرد تجربة من تجارب الغارات الجوية ، وخرجت إلى الطريق فإذا هرج ومرج ، وإذا هي غارة جوية حقيقية ، وإذا بمتطوعي الدفاع المدني من الشباب يقفون في وجه السيارات يحولونها من شارع إلى شارع ، فارتبك المرور وتكدست السيارات وسدت مداخل الطرقات لا تدري أين تتجه ، ومن آن إلى آن تسمع

طلقات سريعة متلاحقة للمدافع المضادة للطائرات .

وذهبت إلى مكتبي بجريدة « الأهرام » فوجدت أحد سعاة المكتب في يده راديو ترانزستور صغير ، يعلن في كل ربع ساعة بياناً من المسئولين في وزارة الحربية أو قيادة الجيش ، اننا أسقطنا للعدو مائة طائرة ، وعندما جاء الظهر كان عدد ما أسقطناه من الطائرات قد بلغ قرابة المائتين . أما في المساء فقد ارتفع العدد إلى ما لا أذكر من أرقام . فما شككت في أن العدو قد انتهى أمره . وسرت في شوارع القاهرة من ميدان التحرير إلى ميدان سليمان باشا فإذا لافتات كبيرة علقها الاتحاد الاشتراكي كتبت عليها عبارات النصر ، ثم عبارات تقول « إلى تل أبيب » ...

وكان الجو كله الذي حولنا يكاد يشعرنا بأن دخول جيوشنا في تل أبيب لن يتأخر عن التاسعة مساء من نفس اليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ . ولكن جاء اليوم التالي والبيانات العسكرية تشير إلى اشتداد المعارك في سيناء ، فرسمت في رأسي صورة لخطة جيوشنا الظافرة ... فلما دخل علي زائر صديق يقول لي في قلق وحزن انه سمع من الاذاعات الأجنبية أن العريش قد سقطت في يد العدو ، وأن جيوشنا تتقهقر باستمرار لم يظهر علي أي انزعاج ، وقلت في هدوء وابتسام وبلهجة الوثوق التام : اسمع ... أنت لا تفهم خطة جيوشنا .... لقد اتضح لي الآن أنها لا تقصد الوصول إلى تل أبيب ولا التوغل في أرض العدو . إنما هي تريد استدراج جيشه إلى أعماق صحراء سيناء والقضاء عليه . لأن احتلال أراضيه أمر قد

تقوم له قيامة هيئة الأمم ومجلس الأمن فينتهي الحال إلى التراجع عنها ، كما حدث له هو يوم احتل غزة وبعض سيناء عام ١٩٥٦ واضطر مرغماً إلى الانسحاب عنها . أما تحطيم قوته العسكرية وانزال الخسائر الجسيمة بها فهو لا شك هدف أهم وأبقى في نظر قيادتنا . هذه هي الخطة . وهذا هو سر التراجع والتقهقر في صفوفنا . ولبثت مطمئناً إلى تفسيري هذا . ومضت الأيام التالية ، وقواتنا مستمرة في تراجع يشبه الركض ، تاركة في شبه هرولة كل المواقع من شرم الشيخ إلى رفح ، وأنا لا أزال هادئاً مبتسماً بتفسيري وبالخطة العسكرية التي أنشأها خيالي ..

هزيمة غير معقولة

ذلك أنه لم يكن من الممكن عقلاً ولا منطقاً أن نصدق بسهولة أن جيوشنا يمكن أن تهزم في بضعة أيام . لقد لبثنا الأعوام وهم يروون عنها الأعاجيب ، ويجعلوننا نرى في كل عيد من أعياد الثورة استعراضات عسكرية تحوي أحدث طراز من الدبابات ، ونرى فيها الصواريخ التي سميت « القاهر » و« الظافر » ونرى فرقاً يطلق عليها اسم الصاعقة تركض وهي تهدر هديراً مخيفاً ، ونرى جنوداً تهبط من الأعالي وتقفز فوق الجدران ، وتمزق وتأكل الثعابين ... ثم سمعنا في الخطب عن قوة طيراننا التي لا مثيل لها في الشرق الأوسط ، وأبصرنا أسرابها وهي ترعد في السماء وجعلنا ندفع من عرق الجبين طيلة سنين ضرائب دفاع وطني وأمن قومي علاوة على

المستحق من الضرائب العادية اقتطعت من لحم الشعب الذي حرم نفسه الكثير تدعيماً لجيشه . وكانت الدعاية لهذا الجيش تجعل أكثر الناس تشاؤماً وتشككاً في الثورة يقول كما سمعت ذلك بنفسي من أفواه ذلك الطراز من الناس : « ربما كانت الثورة فاشلة في كل شيء الا ، والحق يقال ، في الجيش ، فرجالها أصلاً رجال جيش وهو عماد وجودهم وقد انفقوا عليه ما انفقوا ، فإذا اختل كل شيء في المجتمع على أيديهم ، فلا يمكن أن يصل الخلل إلى الجيش .. » كان هذا النفر من المتشككين في الثورة يقول في صباح ٥ يونية ١٩٦٧ : نعم سينتصر جيشنا على العدو وبالطبع « سينتصر وهذا شيء مفروغ منه ، لكن العبرة بالنتيجة ، والنتيجة كارثة إذا تدخلت أمريكا مباشرة ضد مصر » لم يكن اذن من الممكن لشخص واحد ، سواء أكان مع الثورة أم ضدها أن يشك في قدرة الجيش المصري على صد العدو وقهره ، وزاد التأكد يوم شاهدنا في التليفزيون رئيسنا يواجه الصحفيين الأجانب الموفدين من أكبر صحف العالم ليسألوه قبل ٥ يونية والأزمة مستحكمة عقب اغلاقه خليج العقبة ، ماذا هو فاعل إذا جاءت السفن الحربية من بريطانيا أو أمريكا لفتح هذا الممر المائي الذي أغلقه ؟ فأجاب بثقة القادر : « سيجدون هناك قوة لا يتصورونها ».

ما شككت وأنا أشاهد ذلك وأسمعه في التلفزيون أن هناك صواريخ ذرية في الانتظار . لم يخطر ببالي قط أن مثل هذا الكلام قد يكون من قبل التهوين . والظاهر أنه كان في خارج بلادنا من

يزن مثل هذا الكلام الوزن الحقيقي . فقد سمعت ، ولا أذكر في أي تاريخ ، أن عضواً في الكونجرس الأمريكي قال وهو يقرأ خطباً من مثل هذا القبيل لعبد الناصر : « هذا الرجل يبلف » ... ولكننا في مصر ، ما كان أحد منا يرتاب أو حتى يراجع قليلاً حقيقة ما يلقي علينا . هل كنا مسحورين ؟ كما سبق أن قلت ... أو أنها الثقة التامة في زعيم وضعنا أملنا به ؟ أو أننا اعتدنا هذا النوع من الحياة الذي جعلتنا الثورة فيها مجرد أجهزة استقبال ....

وهكذا لبثت حَتى يوم الخميس ٨ يونية وأنا أعيش داخل وهم خططهم العسكرية . وكلما قيل عن تقهقر لجيوشنا ازداد اعتقادي بأن الخطة تطبق باحكام ، وأن هذا التقهقر هو عملية التفاف حول جيش العدو ، وحركة كماشة واسعة للتضييق عليه ، إلى أن اتصل صديق بالتليفون قبيل منتصف ليل ذلك اليوم الخميس ليخبرني أنه قد أعلن رسمياً في مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة ، أن مصر قبلت وقف إطلاق النار . فأفقت قليلاً : كيف قبلت مصر ذلك وهي منتصرة ؟ ثم شط خيالي مرة أخرى وفسرت الأمر على أن قبول مصر التوقف عن المضي في انتصاراتها إنما جاء نزولاً على رجاء أمريكا ، ووعدها بتعويض مصر بمعونات مغرية في نظير هذا التوقف عن اطلاق النار ...

الحقيقة المذهلة

لم أعرف الحقيقة ويعتريني الذهول إلا في يوم الجمعة ٩

يونية ... فقد ظهر أننا خسرنا الحرب منذ الساعات الأولى من يوم ٥ يونية .... وعندما رأينا الرئيس في شاشة التليفزيون يعلن الهزيمة ويخففها بلفظ النكسة ، لم نصدق أننا بهذا الهوان ، وأن إسرائيل بهذه القوة ... وكان أكرم له وأعظم لو أنه اختفى عن أنظارنا في ذلك اليوم ولم يواجهنا بكلام . ربما كان خيالنا قد ضخم لنا صورة آلامه التي لا يمكن أن تحتمل ... ولكننا مع ذلك تأثرنا وعاد فامتلك عواطفنا ... وعاد يمنينا بالنصر ....

وعادت الأناشيد من جديد تردد كلمة النصر ولكن النصر تغير مفهومه . وأصبح هو جلاء إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها ، وعودتنا إلى ما كنا عليه قبل ٥ يونية ١٩٦٧ . ولقد كانت أمانينا الوطنية بالأمس انتهاء الاحتلال البريطاني عن أراضينا ، اليوم أمانينا الوطنية هي إنهاء الاحتلال الإسرائيلي عن أرضنا ... ونحن مستمرون مع ذلك في ترديد شعار الثورة : «كيف كنا وكيف أصبحنا» .

ومرت على الهزيمة الأيام . وفي كل يوم يتضح لنا فداحة حجمها . فالجيش قد أبيد واسلحته ومعداته وأحدث دباباته وطائراته التي استنزفت دم مصر ، ضاعت مع الأرواح التي قدرت بعشرات الألوف والأموال التي بلغت آلاف الملايين ، ولم تطلق مع ذلك طلقة واحدة ، وقال قواد دولة صديقة في عجب : لو أن كل دبابة صمدت وأطلقت طلقة لتكبد العدو من الخسائر ، ما جعل الحرب تمتد إلى أجل معقول ، وجعل الهزيمة إذا وقعت ،

هزيمة بشرف ... ولكنه القرار المعروف : قرار الانسحاب ... من أول نظرة إلى سوء الموقف .. **إنه أسلوب واحد هو طابعه** المميز في حروب الثورة : **توريط أنفسنا ثم الانسحاب** .

ولكن الانسحاب في الحرب الأخيرة **١٩٦٧** كان باهظ الثمن . وسحق مصر سحقاً بهزيمة لن ينساها التاريخ .

أين يقام التمثال ؟

وتوفي عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من الهزيمة ، ولا ندري كيف أمكنه أن يعيشها . غلبت علينا جميعاً العواطف يوم وفاته . وأنا بنوع خاص . دفعتني المشاعر ودواعي الوفاء فاقترحت اقامة تمثال له في ميدان بالقاهرة . فجاءتني خطابات محبذة متأثرة مثلي بالعاطفة وجاءتني قلة من الخطابات مترددة ثم وجدت من بينها خطاباً يقول فيه صاحبه انه موافق على اقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس في القاهرة بل في تل أبيب . لأن إسرائيل لم تكن يوماً تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضاري ، إلا بفضل سياسة عبد الناصر ....

انتهت الثورة

كان من الطبيعي أن تنتهي ثورة **١٩٥٢** في يوم الهزيمة ، وهي في الواقع تعتبر منتهية في نظر التاريخ والمقصود طبعاً بكلمة

الثورة هنا هو النظام الذي خرج منها . ذلك أن الثورات بمعناها الدقيق تنتهي عادة بمجرد تحويلها إلى نظام حكم رسمي . فثورة ١٩١٩ مثلاً انتهت بعد أن أدت مهمتها باستقرار نوع من الحكم الملكي البرلماني وتعيين زعيمها سعد زغلول رئيساً للوزارة . والقول بأن ثورة ١٩١٩ فشلت أو انتهت بقيام ثورة ١٩٥٢ هو قول غير دقيق . لأنها انتهت قبل ذلك بثلاثين عاماً بتحويلها إلى نظام حكم رسمي . كذلك الثورة الفرنسية انتهت وأدت مهمتها بتحول فرنسا إلى نظام حكم امبراطوري في عهد نابليون والثورة الروسية أدت مهمتها بعد أن تسلم لينين السلطة واستقر نظام حكمه على نحو ثابت .. بل ان الثورة الإسلامية كانت قد أدت مهمتها باستقرار معاوية في الحكم وتحولها في عهد الأمويين إلى نظام ملك وراثي ... كذلك الحال في ثورة مصر ١٩٥٢ فقد أدت مهمتها باعتلاء زعيمها رئيساً للجمهورية ، واستقرار هذا النظام الذي جعل رياسة الجمهورية رياسة مطلقة ... هذا النظام الدكتاتوري في جوهره وحقيقته هو الذي هزته الهزيمة هزاً وصفه الرئيس بأنه شرخ . وكان طبيعياً أن يتسع الشرخ وينهار النظام . وما حدث بعد ذلك حتى اليوم يعتبر من قبيل التقلصات العصبية العاطفية ، أو يعتبر من قبيل الدوار الذي يصاحب الوحم ايذانا بميلاد مصر جديدة ....

دراسة موضوعية

مهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة من مراحل مصر ، التي

استغرقت عشرين عاماً سوف تكون موضع دراسة مستفيضة. وأرجو لدارسيها أن يكون رائدهم العدل والموضوعية، وأن لا تطغى على تفكيرهم الهادئ وبحثهم الرزين وحكمهم الرصين، أي حزازة أو مرارة أو مجاملة أو مبالغة، وأن تذكر لها ولقادتها المحاسن والمساوئ على السواء، وأن يصوروا بأحجامهم الحقيقية وأن لا يقلدوا ثورة ١٩٥٢ أو نظامها في الانتقاص أو الاغفال لثورة ١٩١٩ أو مرحلتها، والرفع من شأن ثورة عرابي أكثر من قدرها، فكشف ذلك لبعض الفاحصين عن عقدة ومرض وفرض ازاء ثورة ١٩١٩ لأنها كانت ثورة شعبية حقيقية، وعن مدح واشادة بحركة عرابي لأنها تشبه ثورة ١٩٥٢ في أنها حركة جيش قامت تطالب الخديوي توفيق بمطالب معينة كما قامت ثورة ١٩٥٢ كحركة جيش تطالب الملك فاروق بمطالب معينة. وكأن سخرية القدر شاءت أن يكون التشابه تاماً فجعل ثورة ١٩٥٢ تنتهي بهزيمة عسكرية واحتلال أجنبي، كما كانت نهاية ثورة عرابي..

كذلك لا ينبغي تقيد ثورة ١٩٥٢ في تشجيعها على التزييف والنفاق وطمس الحقائق وجعل ثورة ١٩٥٢ هي تاريخ ميلاد مصر الحضاري. وأن ما قبلها هو الجاهلية. في حين أن ثورة ١٩٥٢ ما كان يمكن أن تقوم إلا على دعائم قوية من نهضة مصرية حقيقية قامت في الثلاثين سنة السابقة على قيام الثورة. وأن نقدنا وهجومنا في كل ما كتبناه عن الحكم الفاسد، إنما فقط كان

هجوماً ونقداً على رجال الحكم من ملك وساسة وأحزاب .

من صنع الدولة ...

ففساد الحكم في جانب ، وكانت في الجانب الآخر مصر بعقولها وسواعدها وإرادتها الحرة . لقد كانت ثورة ١٩١٩ هذه الظاهرة العجيبة : وهي أنها أيقظت مصر ، فنهضت تبحث عن شخصها وتعيد روحها وحضارتها بنفسها ، دون اعتماد على حكام مصر وحكوماتها وساستها وأحزابها ، فمصر بعد ثورة ١٩١٩ في حضارتها وفكرها وفنها واقتصادها هي من صنع مصر ، وليست من صنع حكامها . أما بعد ثورة ١٩٥٢ فإن مصر هي من صنع الدولة أكثر مما هي من صنع نفسها . فإرادة الدولة وقراراتها المطلقة التي لا معارضة لها ولا مناقشة هي التي توجه كل شيء في مصر ، حتى مجرد الفكر ، وهذا عكس ما حدث بعد ثورة ١٩١٩ . فثورة مصر السياسية عام ١٩١٩ عندما انتهت ، كانت ثورة مصر الحضارية والفكرية قد بدأت . وأن ثورة مصر السياسية انتهت بتحولها إلى نظام حكم ملكي . أخذ يظهر فساده عاماً بعد عام . ولكن الثورة الفكرية والحضارية بدأت تسير يوماً بعد يوم ، ويظهر تألقها ورسوخ أساسها بغير معونة الحكومات المشغولة عنها بنشاطها الحزبي والسياسي . إلى حد أذكر فيه أن مسابقة أدبية أعلن عنها في العشرينات للتأليف المسرحي لم تفكر فيها الحكومة . بل الذي فكر فيها ودفع قيمة جوائزها فرد من الناس من جيبه الخاص . أما

في ثورة ١٩٥٢ فإن السياسة والفكر والحضارة وكل نشاط تقوم به يد واحدة وتخرج من رأس واحدة .. وليس معنى ذلك أن ما صنعته دولة الثورة كان سوءاً كله ، أو أنه كان خالياً من النفع أو من حسن النية . وهذا ما أردت أن يكون البحث فيه قائماً على روح العدل والانصاف والموضوعية التامة ، فمصر قد عرفت نظامين على مدى ثلاثين عاماً ، النظام الديمقراطي على نحو ما ، ومن عيوبه التي لمسناها ونقدناها التطاحن الحزبي والجدل العقيم الذي يعرقل المشروعات النافعة ويبطئ تنفيذها . ومن مزاياه شيء من حرية القول والعمل والرأي والوعي المستقل : مع عدم المغامرات والمقامرات الخطرة ... ثم النظام المبني على الحكم المطلق بإرادة فرد ، من مزاياه التنفيذ السريع لما يراه من مشروعات نافعة ومن عيوبه القرارات المتعجلة أو المفاجئة المبنية على المغامرات والمقامرات التي قد تورد الأمة في ساعة واحدة موارد الهلاك ...

تقييم مكاسب الثورة

كذلك إذا طرحت يوماً للفحص مكاسب الثورة ثورة ١٩٥٢ فيجب فحصها بالموضوعية العلمية . بعيداً عن أي عاطفية . فمثلاً الاصلاح الزراعي يدرس من كل نواحيه . وهل وقف عند حد تحديد الملكية وتمليك الفلاح المعدم عدة أفدنة ، أو أنه كان إصلاحاً زراعياً بالمعنى الحقيقي ، اختفت معه صورة الفلاح الفرعوني بمحراثه الخشبي وحلت محلها الآلات الحديثة وحررت البهائم من الأعمال الشاقة كما حدث في النهضات الزراعية

الحقيقية وخصصت البهائم والمواشي لمد البلاد بالألبان واللحوم ؟ والتصنيع ماذا تم فيه ؟ وما حدوده وأسواقه ؟ وما الذي نجح منه وما الذي أخفق . بغير مغالاة ولا اجحاف . والاشتراكية ما حقيقة تطبيقها وما مداه ؟ وهل هي مجرد التأميم والاستيلاء على أموال وقصور لتحل فيها طبقة أخرى باسم آخر ، تماثلها في الثراء وتتشبه بها في الترف ؟ .. هذه البنود وغيرها من بنود مكاسب الثورة في حاجة إلى غربلة بعيدة عن الطبل والزمر والأناشيد والأغاني ..

ضياع وعي مصر

وأنا أفترض أن كل هذه المكاسب حقيقية . وأود من كل قلبي أن يسفر البحث النزيه عن ذلك .. ولكن هناك خسارة لا شك فيها ولا يعدلها عندي مكسب ، ذلك هو ضياع وعي مصر . ولو تصورنا رجلاً تسلط على ابنه ولم يترك له إرادة ولا اختياراً لشيء ، وجعل يغدق عليه كل الخيرات التي يرى هو أنها صالحة لابنه ، ويتخير هو له نوع الحياة التي يجب أن يعتادها والزوجة التي يجب أن يتزوجها ويراقب الصحف التي يطالعها ، والكتب التي يقرؤها والأخبار التي يسمعها ، والأغاني التي ينشدها والسينما التي يشاهدها ، والطعام الذي يأكله والدواء الذي يعالجه والأصدقاء الذين يصادقهم والأعداء الذين يعاديهم ، وبالاختصار كل ما يتصل بحياته المادية والعاطفية والفكرية يجب أن يسير في المجرى الذي يريده ويخطه الأب الحنون ، دون أن يقبل من ابنه مراجعة

أو معارضة أو اختياراً حراً . ماذا يكون مصير هذا الابن ؟ وهل تنفعه كثيراً الخيرات والمكاسب التي أغدقت عليه ، وقد فقد مع مرور الزمن النمو الطبيعي لتكوينه العقلي والإرادي .. وأصبح شخصاً ضعيف الشخصية فاقد الوعي بذاته جاهلاً لمعنى المسئولية ، لأنه لم يتحملها يوماً بنفسه ، فأبوه الحنون هو الذي يفكر له ويختار له ويقرر له القرارات المصيرية ، ويتحمل عنه كل المسئولية وهو جالس كالمعتوه ، يتلقى كل شيء من فم أبيه .

وهذا بالضبط كان حالي ، يوم جلست أمام التليفزيون بفم مفتوح كالبلهاء ، استمع إلى انهيار مصر الثورة الذي تم في بضع ساعات ... ثم استمر الطنين كالمعتاد من حولي في الأناشيد الحماسية وأغاني المطربين والمطربات ولافتات الشركات : النصر ، النصر ، النصر ، شركة النصر لكذا ، وشركة النصر لكيت ، وسيارة نصر ، ومصنع نصر ، ومتجر نصر ... وكل شيء نصر في نصر في نصر ... إلى حد مضحك يثير سخرية أي إنسان عاقل ... ولكن مصر لم تعد تعي أنها أصبحت مضحكة بهذه الألفاظ والأوصاف . فقد كانت تصدق من أرادوا أن يجعلوها تصدق أنها تعيش غارقة في الانتصارات ، انتصارات الثورة ، أيامك كلها انتصارات ...

لم يكن فينا رجل يقول أو يستطيع أن يقول : كفوا عن ترديد كلمة النصر هذه التي نطلقها بغير وعي ولا معنى على كل شيء يصادفنا ... ان البلاد التي انتصرت فعلاً الانتصارات

العسكرية أو العلمية أو الحضارية لم تكثر هكذا ولم تسرف في ترديد هذه الكلمة في كل موضع و بمناسبة وغير مناسبة بلا حياء .. أما والهزائم قد توالت فما هي دواعي الاستمرار فيها قد يثير السخرية ، الا أن يكون هو الاطمئنان إلى أن الوعي العام مفقود .. أتراه كان تحطيماً مقصوداً لوعي مصر ؟ .. ان الكتب المدرسية في أيدي الشباب تضخم أمجاد الثورة تضخيماً تشتم منه رائحة التزييف والملق ، وتترك في ظلام اللاوعي صفحات مشرقة لعهود أخرى ..

ما عذر الكهول ؟

ولكننا نحن كهول الثورة ما عذرنا ؟ ما الذي خدر عقولنا ؟ فينا من يقول ان إجراءات عنيفة قد اتخذت لمنع تكوين رأي عام حر يناقش ويعارض ، وانها الرقابة المشددة على كل ما ينشر ويذاع ثم الاعتقالات لمن يشتبه في رأيه المخالف مع ألوان من التعذيب بلغت فظاعتها مبلغ الأساطير ، مما لا بد أن يحقق في صحته يوماً من الأيام . وفينا من يقول ان من افلت من الاضطهادات وقع في شرك الأوهام . فالحقائق محجوبة . والرؤية الصحيحة للأشياء ممنوعة . ولم يبق أمامنا إلا اتجاه واحد وصورة واحدة هي ما ترسمه لنا سلطات محفوفة بدوي الطبول . سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد ، وأسكرونا بخمرة مكاسب وأمجاد فسكرنا حتى غاب عنا الوعي .

عودة الوعي

لقد ذكرت أن عبد الناصر أهدى إليّ كتابه « فلسفة الثورة » عند صدوره . لقد كان بالاهداء عبارة أشار فيها إلى كتاب « عودة الروح » : « مطالباً بعودة لروح أخرى في عهد الثورة » ... ولم يدر بخلدي وقتئذ أن ما سوف تحتاج إليه مصر بعد عشرين سنة من عمر الثورة ليس « عودة الروح » ولكن « عودة الوعي » ... وهو كتاب لن أكتبه أنا ، لا .. لا شيخوختي وضعف صحتي هما وحدهما السبب ، بل لأن من يستطيع ذلك هو كاتب آخر من جيل آخر ، له من الحرية وعدم الارتباطات العاطفية ما يمكنه من الرؤية الواضحة والحكم المتثبت على عهد اختلطت فيه حقائق الأشياء إلى حد كان يرفع فيه الشعار ويعمل بنقيضه خلف الستار . فكلمة الحرية مثلاً و « عهد الحرية » تجري على الألسنة في الخطب والأغاني والأناشيد ، وما من كلمة حرة واحدة لا يريدها الحاكم يمكن أن تخرج من الصدور ، وإلا دخل صاحبها السجون ، لقد نجح الحاكم في أن يدمج مصر كلها فيه . وأن يقنع مصر البالغة من العمر أكثر من خمسة آلاف عام أن عمرها هو عمر الثورة ونظامها ، وأن لا عمر لها قبل ذلك ولا بعد ذلك يستحق الذكر . هذه العملية البارعة لضغط مصر العملاقة ووضعها في علبة الثورة ونظامها ، خنق مصر ، وأفقدها الوعي بحقيقة حجمها الهائل عبر التاريخ والأنظمة التي اجتازتها كلها وبقيت « مصر » .

إن معنى عودة الوعي لمصر هو استرداد حريتها في الحكم

بنفس الأشياء . وانه ليحضرني مثل جميل للحرص على وعي الشعب . انه تقدم ديجول وهو بطل قومي لفرنسا للاستفتاء على رياسة الجمهورية . لقد تقدم معه خمسة من المرشحين . وقبل الاستفتاء العام سمح للجميع بفرص متساوية في الصحف والإذاعات لعرض برامجهم . ونشرت إحدى الجرائد خمس خانات معنونة بالأرقام لا بالأسماء ، ووضعت في كل خانة برنامج المرشح . ودعت قراءها إلى اختيار البرنامج دون معرفة صاحبه ، ولم تذكر اسماء المرشحين إلا في آخر صفحة . وأردت أنا أن أجرب في نفسي هذه العملية ، واخترت احدى الخانات ، وقد اعجبني البرنامج الذي فيها ، وقلبت الصفحات لأعرف اسم من اخترت فإذا هو لدهشتي ديجول نفسه ... هكذا يرى الرأي العام الحر ، ويحرصون على وعي الشعب في تلك البلاد . أما الاستفتاء الذي تطبل له جميع الصحف مقدماً بكلمة « نعم » بالخط الأحمر العريض ، ثم يخرج بنتيجة ٩٩,٩٪ فمعناه أن هذا البلد ليس له وعي ولا حرية بل ولا كرامة إنسانية .

فهل ستسترد مصر الوعي الحر يوماً ؟ .. لذلك كان لا بد لكتاب « عودة الوعي » من أن يكتب في يوم من الأيام ...

(الأحد ٢٣ يولية ١٩٧٢) .

هــذا التحــدي

هذا التحدي الذي كتب على أمتنا العربية . ولم يعد لها إزاءه بديل أو خيار ..

هذا التحدي الذي فجّرته حرب اكتوبر المجيدة . وكشفته وعرّته لكل واهم أو غفلان .. وبدأت طلائعه تبدو بشكل أو بآخر في أكثر من مجال .. أو في أكثر من مقوم من مقومات الوجود والحياة !

كيف نجابهه .. وبماذا نصمد أمامه ونتصدى له ؟

لا شك هناك أكثر من وسيلة وأسلوب ..

ولكن يجيء في مقدمتها جميعاً .. الصدق .. والصدق مع النفس بالذات .

في مفترق الطرق الذي نحن فيه الآن .. والذي يحاول هذا التحدي أن يحاصرنا فيه من كل اتجاه .. يلزمنا أول ما يلزم صدقنا مع أنفسنا قبل كل شيء .

لماذا نحن فيما نحن فيه الآن .. ولماذا وصلنا إليه .. وكيف نخرج منه ؟

وباختصار .. كيف كنا .. وكيف يمكن ان نكون ؟

وهذا البحث .. أو هذا الرأي الحرّ الأمين - على إيجازه وتركيزه - محاولة صادقة هادفة لتقييم وتحليل المرحلة الضخمة العاتية التي عبرناها إلى مرحلة نرجو أن تكون مجيدة عظيمة رغم هذا التحدي .

فيلزمنا ونحن في مفترق الطرق بينهما .. أن نمعن الرأي .. ونعيد الحساب .. لنتبيّن الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، والرشد من الضلال .. فتكون مسيرتنا في المرحلة الجديدة .. مسيرة سليمة واعية رشيدة .

فلنتمعن ما جاء بإيجاز وتركيز وتلميح في هذا الرأي الحر بل هذا الاعتراف الشجاع العملاق .. بعقول مفتوحة وقلوب خالصة وبصيرة واعية وإدراك سليم ..

وكفانا - فيما كفانا - العقول المنغلقة والقلوب الحاقدة والقوالب المصبوبة والشعارات المصكوكة ..

والله المستعان

محمد المعلم

٥٠ قرشاً

* كتب السلسلة الأولى *

الكتاب	المولف
- عودة الوعى .	توفيق الحكيم .
- خريف الغضب .	محمد حسنين هيكل.
- سنة ثالثة سجن .	مصطفى أمين .
- الملك فاروق وعلاقته بألمانيا النازية .	وجيه عتيق .
- أعجب الرحلات فى التاريخ.	أنيس منصور .
- مواقف.	أنيس منصور .
- قوة الخفاء .	أنيس منصور .
- المختار من القصص العالمية .	مكتبة الاسرة بمصر .
- الرعاية الطبية والتأهيليلة من منظور الخدمة الاجتماعية .	عميد معهد الأسكندرية " أبراهيم عبد الهادى " .
- كتاب تاريخ موجز لزمن "من الأنفجار الكبير الى الثقوب السوداء "	ستيفن هوكنج .

مع تحيات
جدران المعرفة
Theknowledge_walls@yahoo.com